البريد الالكتروني:
: unecriv@net.sy **E-mail**
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

❑❑

سها جلال جودت

السفر إلى حيث يبكي القمر

روايـــــــــــــة

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2004

التقديم والإهداء

يقـول ابن القيم في التربيـة: فمن أهمـل تعليم ولـده مـا ينفعه وتركه سدى فقد أساء غايـة الإسـاءة، وأكـثر الأولاد إنمـا جاء فسادهم من الآباء وإهمالهم لهم، فأضـاعوهم صـغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً.

من هذا المدخل لكلام ابن قيم جوزية أقدم روايتي، العمـل الأول بعــد إصــدار مجموعــتي القصصــية الأولى (رجــلٌ في المزاد)، وقد استغرقت معي زمنـاً غـير يسـير لأكشـف النقـاب عن كوامن الطفل النفسية والأسباب المباشرة غـير المباشـرة في تشرده وضياعه، وذلك من خلال تقديم هذا العمل الـروائي والذي استند في مجمل أحداثه على الواقع الدميم الذي تعـاني منه مجتمعاتنـا، وأجـزم بلا شـك أن هـذه المجتمعـات الأسـرية تخلق في نفس الطفل انعكاساً إيجابياً عند بعض الأطفـال حين تـرفض نفسـية الطفـل واقـع حيـاة الضياع فيبحث لذاتـه عن مخرج إما بمتابعة التعليم، أو في استقراره على تعلم حرفـة أو صـناعة ليغـدو إنسـاناً سـوياً، على عكس مـا سـنجده في هـذه الرواية.

سها جلال جودت

الجمعة 15ذو الحجة 1424

الموافق 6 شباط 2004

***

يقول سارتر: (الكاتب يمثل ضمير العصر). والروائية سها جلال جودت أحست بالمسؤولية الأدبية والثقافية والإنسانية تجاه مجتمعها، ولذلك سعت جادة لتكون بمستوى هذه المسؤولية من خلال هذه الرواية الشائقة...

فالرواية تمتاز بكثافة شديدة وحساسية مرهفة أسهمت في تشكيل عالم يمزج الواقع بالرمز والحلم من خلال عبارة رشيقة أقرب إلى الشاعرية وأسلوب ملون دافئ وسبل تعبيرية وفكرية تحتضن الصدق والوفاء للوصول إلى آفاق مزهرة.

إن الخوف، والتمرد، والألم أقانيم ثلاثة تمثل الاغتراب الداخلي لكونها تنغرز في جسد الرواية وأحداثها بفاعلية كبيرة، والكاتبة تصر عبر هذه المحاور المركزية على الانتباه إلى النتائج التي ستصل بها إلى القارئ من خلال واقع مماثل لواقعنا، - هذا إذا لم يكن مطابقاً له- ومن خلال ما تعززه الأحداث في حياتنا ووجودنا، لأن معرفة ما هو حلو إلى جانب ما هو مرٌ فعلاً يعني الكثير الكثير.

إن الرواية تتصدى للمشكلات الاجتماعية من خلال رؤية نقدية تكشف عن معاناة البناء الاجتماعي وتصدعه بسبب سلبيات تنخر في عظامه تستحق التوقف والتدقيق، ذلك لأن من أهم جماليات الرواية هذا الصدام بين ما يجب أن يكون، وبين الواقع الغافي على الظلم المفجر للمعاني اللاأخلاقية التي تعشش في مفازات الجهل والتخلف.

وإن النظر إلى جذور الأزمة في الحدث يعود للواقع التاريخي المتأرجح والانتماء الطبقي... فالبطل ينتمي إلى الطبقة التحتية التي تفرض واقعاً مفسخاً ينعكس سلباً على فكر وسلوك أفراد هذه الطبقة فيظهر الفرد مغيب الفكر والوجدان، حائراً في آفاق مستقبله، ضائعاً في توجهاته وأفعاله، فيضطر إلى التغلغل في ثنايا الشهوات والاسترسال في الاندماج مع أشخاص ليسوا من سنه ولا من مسلكه. إلخ. أهو نداء الفكر أو نداء القلب أو الانهيار الكلي الذي لا مناص منه.

لقد فقد البطل حنان الأبوين والرعاية، وما يكاد يخرج من ظلم حتى يدخل في آخر، فاستسلم للإهانة، ورضخ لشبكة الفعل اللاأخلاقي مما عكس على حياته عدم الاستقرار ورسخ الضياع.

إن هـروب البطـل من الـرديء إلى الأردأ، ومن حيـاة الممكن إلى حيـاة المسـتحيل بسـبب ملاحقـة المجتمـع والسلطة له، جعلـه يوغـل في غيـاهب الضـياع والرذيلـة، ولم تنقذه عاطفة مفاجئة أو حب متخيل.

وإن ضـياع البطـل لا يعـود إلى جرأته ورفضـه الظلم وبحثه عن حريته، وإنما يعود – في رأيي– إلى عجز وعيـه وإهمـال مجتمعـه لواقعـه فبقيت روحـه في فـراغ هلامي وغـدا غـير قـادر على تحديـد الاتجاهـات الـتي تـدرأ عنـه الجـبروت والظلم، ولـذلك حـط رحالـه في مناخـات يستعصي فيها الأمل بحياة مثالية نظيفة.

وتؤلـف الشخصـيات في الروايـة متنـافرة ومتعاضـدة عملاً روائيـاً ناجحـاً؛ فالزمكانيـة واضـحة المعـالم، عميقـة الأثر؛ والسائد الاجتماعي والطبقي فاعل ومهنـدس لنمـو الأحداث. إن رواية (السـفر إلى حيث يبكي القمـر) تركـز على أهمية رعايـة الإنسـان، وهي دعـوة مهمـة من أجـل التـوازن الاجتمـاعي، وإصـلاح البيئـة، وإلقـاء الضـوء على التناقضات الاجتماعية ومآسيها ومحاولة لـدحض العـادات والتقاليد البالية، إذ ما الذي نرجوه من إنسان يجـد نفسـه مطعوناً منذ صغره بحبـه وأبوتـه وأخوتـه وعلاقاتـه وحـتى في وجوده وإنسانيته؟! كيـف سيتشـكل؟ وكيـف سـتكون مواقفه ورؤاه؟ وهو المغتال والمتهم والمطرود؟!

لقد وفقت سها جلال جودت في رواية تواجهنـا بـرؤى معمقة عـبر بنـاء فـني محكم ووعي نابـه وموقـف خلاق، وهي إذ تضـع بصـمة قويـة في هـذا الميـدان تسـتحق استقبالاً لائقاً من قبـل الروائـيين والنقـاد والقـراء، وهـذه الروايـة يمكن ضـمها إلى كتب المبـدعين الـتي تغـني المكتبـة العربيـة وتمتـع – بحق– القـارئ، وتـدفع البـاحث والناقد إلى الإعجاب.

هيثم يحي الخواجة

***

-1-

اسـمي غـالب. مضـى على يـوم مولـدي عقـدان وبضـع سـنواتٍ ومـا زلت أعـاني من غلبـة وجـودي المـأزوم، دخلت السجن غير مرةٍ، وأهم مرحلة في حياتي تلك التي قضيتها في دار الأحـداث، حين شـاهدوني بعد الثانيـة عشـرة ليلاً أتجـول بمفردي في ساحة "سعد الله الجابري" وكـان عمـري حينـذاك أربعة عشر عاماً، قلت: كنت أتجول، أدور قالوا: كـذاب رأينـاك تتسول، "هل شُبهت لهم؟!!".

في الدار كان يزورنا المرشد الاجتماعي يعطينا دروسـاً في الأخلاق وفي الحياة، كنت أبتسم وأنا أراه يتحـدث عن الفضـيلة والشرف، حتى ناداني ذات مرة:

- تعالَ، ما يضحكك ؟

خجلتُ من سؤاله وملتُ برأسي، مدّ يده نحـو ذقـني ورفـع بأصابعه وجهي نحو وجهه وحدق فيَّ ملياً ثم قال :

- بعد الدرس، أريدك !

عدت إلى مكاني وأنـا قلـقٌ متـوترٌ "تُـرى مـا يريـد مـني ؟ وهل سيشكوني إلى مدير الدار ؟ لكنَّ المدير لن يسـمعه فهـو يحبني ويقول غالب حساس و"شاطر" !

بعـد الانتهـاء من الـدرس أشـار بيـده فتبعتـه وأنـا مطـرق الـرأس وجـل الخطـوات، في غرفـة الملاحظـة جلسـت أمامـه فسألني :

- ما اسمك ؟

- غالب.

- اسمٌ جميلٌ، ما تهمتك ؟

- تجولْ بعد منتصف الليل !!

حدق في وجهي مستغرباً ثم سألني :

- ماذا تحب في الحياة وماذا تكره ؟

أجبت :

- أحب الطبيعة والنقود كثيراً، وأكره البخيـل والجبـان، وأن ترشقني سيارة بماء الشارع، وأن أسمع كلمة مغضوب!!

نظر في عينيّ، شعرت به يغوص في البؤبؤ عميقاً ومن غير أن ترف عينه قال متابعاً:

- من تحب من أهلك، أقربائك، أصدقائك ؟
- خالتي أم جميل وصديقي عيسى.
- وأمك وأبوك وأخوتك وباقي الناس ؟

ساد الغرفة الصمت، هو ينظر في وجهي وأنا أتأمل الستائر والهواء المتسرب من النافذة، وبعد الدخول في دائرة السكوت، عاد يسأل :

- إذا شاهدت عاجزاً طلب مساعدتك ما تفعل؟
- حسب حاجة العاجز إليّ !
- إذا شاهدت مالاً وصاحب المال أزعجك ما تفعل ؟
- أسرق المال الموجود انتقاماً منه !!

كادت عينا الرجل تنفجران، وبضغطٍ على أعصابه التي صارت قلقة متوترة قال متابعاً :

- ماذا تحب في نفسك، وماذا تكره ؟
- أحب قلبي الطيب ولساني، وأكره أن أكون جباناً !!
- ماذا تحب في أبيك، وماذا تكره ؟ وماذا تحب في أمك وماذا تكره ؟
- أحب فيه شطارته في السيطرة على "الزبونة" وأكره اتهاماته الباطلة وأحب في أمي صمتها، وأكره تعظيمها للأمور!
- إذا تزوجت كم ولداً تفكر أن تنجب؟
- حوالي العشرين !

بدهشةٍ واضحة النبرة سألني :

- لمَ؟
- كي أكون صاحب عشيرة !
- لمَ ؟
- ليدافعوا عني في صدّ المشاكل !!
- أتحب المشاكل ؟
- ....
- إذا تمرد أحد أولادك عليك، ما تفعل ؟
- أطرده !!
- هل تحب أخوتك ؟
- فقط أختي فريدة !!
- لماذا؟
- ....
- هل تخاف من العمل ؟
- لا !

- هل حلمت برئاسة مركز ما ؟
- نعم
- مثل ماذا ؟
- رئيس عصـــابة لســـرقة الكـــروم، كمـــا حلمت بشـــراء مسدس!!

شـــعرت من تحديقـــه في وجهي كأنـــه أراد صـــفعي على وقاحتي في هذه الجـرأة المبـالغ بهـا، لكنهـا حقيقـة مشـاعري وطموحـاتي، هـو يسـأل وأنـا أجيب من خلال معمـل أفكـاري الملتهب، ولأنه وجدني كنزاً ثميناً تابع الأسئلة :

- هل تحب العلم ؟ ولمَ لمْ تتابع تعليمك ؟
- أحب العلم وكنت أرغب في أن أكـون ضـابطاً بـالجيش يـؤدي العسـكري التحيـة لي بـاحترامٍ، ووالـدي حرمـني من المدرسة لأني رسبت في الأول الإعدادي !!
- هل تشعر بالنقص من شيء ما ؟
- أشـعر بعـدم وجود الرعايـة والحنـان في حيـاتي منـذُ خلقت!!
- لمَ ؟
- لا أعرف !!
- أمنياتك ؟
- أن أكون أقوى مخلوقٍ على وجه الأرض !!
- على من تحقد ؟
- على نفسي !!
- لماذا؟
- لأنني منحوس !!
- أي الزهور تحب ؟
- الياسمين !
- أي الألوان تحب ؟
- الأحمر !
- لماذا ؟
- لأن أصدقائي يحبون اللـون الأحمـر وينتسـبون إلى نـادي الاتحاد !
- هل تفكر في أن تكون لاعباً مشهوراً ؟
- لا، لا أفكر !!
- هل تقبل النصيحة وتعمل بها ؟
- لا !!!

وجعلته يطوي الدفتر ويهز رأسه مثل مصاب بداء الرُّعـاش لأعود إلى حيث كانوا يجلسون أمام الشيخ الذي حضـر ليعلمنـا كيف نتلو القرآن.

****

الآن أنا في السجن المركزي، جاءنا صوت المنادي:

إسماعيل، عدنان، غالب، مصطفى، وضعوا الأصفاد المعدنية في أيدينا، صعدنا إلى داخل سيارة شاحنة مغلقة، دخل معنا أربعة رجال من الشرطة، وأغلق الباب علينا، لم أفكر بالهرب كما يحصل في الأفلام العربية والأجنبية، شعرت بالغثيان من رعدة الخوف، انتابت مشاعري الواهنة كآبة لصيقة لا تعرف الابتسام، وكيف تعرفه والقاضي لن يسمعني،لأنه سيقرأ ملفّ الدعوى أولاً، ولأنه لا يحكم على الناس من خلال مشاعره.

مساء البارحة كنت قوياً، استحضرت في ذاكرتي دفاعي عن نفسي أمام سيادته والحاضرين في قاعة المحكمة:

"- نعم يا سيدي، أنا المتهم. ولكني لست زعيم عصبة كما ورد في الملف!

أنا الطريد المطرود، أنا الذي حمل وزر أب كان صاحب عقدة!

اشتغلت معه في محلٍ كان يملكه منذ الطفولة ؛ علّمني فن المساومة مع النساء بطريقته وحنكته لأكتشف بعد فوات الأوان سبب انزلاقي داخل وادٍ من السقوط أملس.

وادٍ لم أستطع الخروج منه ولا التحرر من سياج أشواكه التي أدمت مراحل حياتي كلها.

كان فيه نوع من الإدمان، ونوع من اللعنة، ونوع آخر من ضعف لاإرادي فقد قدرته على التفكير لأنه وقع تحت سيطرة ضعفٍ من نوعٍ مهيمنٍ !

كنتُ أنصرف من مدرستي و"صدريتي" على جسدي ومحفظتي فوق ظهري أمسك بها من خلال حزامين يدخلان تحت إبطي.

كان المحل صغيراً غرب جامع شبارق في حي الميدان وكان يجب عليّ فور انصرافي من المدرسة أن أسرع نحو المحل كي أغسل أرضه، وأمسح الغبار عن الرفوف، وأبيع الزبائن، أفرد وأطوي الملابس القطنية ذات المقاسات المختلفة، وأعيد ترتيبها من جديد مثل رجل حاذق ماهر!!

حين صمتت دواليب السيارة عرفت أنّا قد وصلنا، طالبونا بالنزول والأطواق الحديدية تطوق معاصم الروح.

غبشٌ تراقص أمام نظراتي التائهة، أغمضت عينيّ فتحتهما، زحام هائل يملأ الردهات صخباً وضجيجاً، ألف قلبي الذليل وأدخل القفص حين دخلنا قاعة المحكمة.

بعد ساعة من الانتظار اللزج صرخ الحاجب :

- الدعوى رقم (15) ؛ ودون أن ينظر القاضي في وجوهنا ومن دون أن يقول شيئاً ليرحم ذلنا، وبعد أن قلب الأوراق قال :

- تؤجل الدعوى مدة شهرين اعتباراً من تاريخه.

حينئذٍ أحسست أني أغوص داخل خندق ضعفي وانهـزامي، خافض الرأس كسير النفس منادياً آهـات الوجـع المتغلغلـة في أعماق الروح أن تلزم الصمت !.

حين عـدت إلى الزنزانة، وجـدت أن حيـاتي في داخلهـا لا تختلـف عن حيـاتي في منزلنـا. فأنـا لم أعش طفولـة حقيقية، رأيت نفسي مع أمٍ ممسوسةٍ بالتنظيف، غارقة في شـؤونها لا تهتم بأطفالهـا ؛ ووالـد منهمـك في حسـاباته بين الإدخـالات والإخراجات، ما ينفك يوهمنا أن خسائره متزامنة بسببنا.

انبثقت آلامي تحكي عن قصـة حيـاتي المحـددة بالعـذاب المـؤلم الجـارح، العـذاب الـذي جعلـني أتـوجس من الخـوف، والخوف كان السـبب الرئيسـي في ممارسـتي للكـذب والغش والخـداع، تمركـزت عتمـة ظلمـه من صـفعة أولى لكذبـة أولى وقعت فيهـا مثـل طعنـة غـادرة، مـا غـادرت عقلي لأنهـا بقيت محفورة على أفنان الروح المتكسـرة تؤلمـني بمـرار إفـرازات عصارات العلقم، والتي لم أستطع دفنها وما استطعت !!.

كان داهية، متمنطقاً بوسـامة لا تقـدر على كشـف خفايـاه، أوقعني في صيده وهو يبتسم قائلاً :

- سأشتري بضاعة بالجملة.

ولأني تواق إلى إرضاء أبي، فقد غردت روحي التي فرحت مثل تغريد البلابـل في فسـحة من طبيعـة غنّـاء "سيرضـى أبي عني وسيفرح جيبه ". ومن أجـل كسـب هـذه المـودة، قلت بلا ترددٍ والبراءة تسطع من شفتيّ كما سطوع الشمس في فصل الربيع :

- تحت أمرك أستاذ.

اعترتـني الغبطـة وأنـا أطـوي لـه البضـاعة بشـكل أنيـقٍ ومرتبٍ رغم صغر سني، ولأني صغير السن، فقد أوصـد أبـوابَ عقليَ الطفل عن التفكير بعواقب الأمور، حين أقنعـني بهدوئـه اللا مشكوك به أن أرافقه إلى حيث يسـكن فـالبيت قـريب من المحل وفي نهاية الشارع !.

ما فعلته كان بالنسبة لي حدثاً رائعاً، فرصة العمـر الذهبيـة فقـد أردت من خلال مـا فعلت أن أثبت لأبي أني رجـل وسـيد المحل في غيبته، وأستطيع تحمـل المسـؤولية، وملامح الرجـل وأناقته تنفي الشكوك فابتسامته دائمة الوسامة، لهذا لم أرهبه وأنا أمشي إلى جانبه !.

أمـام بـاب العمـارة وقفت طـويلاً، تحـولت الـدقائق إلى ساعات من الانتظار الصعب، وحين فقدت قـدرتي على الصـبر في انتظاره خاوي اليدين سارعت في الصـعود إلى حيث أشـار مؤكداً لي أنه لن يتأخر.

جبلٌ من حمم بركانية انهار فـوق رأسـي وطفـرت الـدموع من عينيّ رغماً عني من صهيل دقات قلبي الباكي بغـزارةٍ، أين هو؟ كيف اختفى ؟ أية طامة آثمة وقعت في جريرتها ؟.

على منظري الحزين أبدى أصحاب الدكاكين المجاورة لمدخل العمارة أسفهم، فاقترب أحدهم مني وسألني :

- ما بك يا عم ؟ لمَ البكاء ؟

أجبته ونار الخيبة من خسارة لم تكن في ميزان الحساب تزيد من فتيل اشتغال الدموع في عينيّ وأنا أشهق :

- سرق البضاعة!

- من هو ؟

- لا أعرف! !.

الخوف يجعلني أروي للغريب صاحب الدكان ما حصل معي ولا أحكي لأبي، أخبرته بالقصة من دخول الرجل إلى المحل حتى وقوفي عند مدخل باب العمارة، حينذاك أمسك الرجل بيدي وصعد معي إلى الطابق الرابع، دق الباب بتكور أصابعه، كرر الطرقات بقوة، فتحت المرأة التي وبختني قبل قليلٍ، وبانزعاجٍ واضح النبرة، قذفت ببضع كلمات ساخطة كأنها تقذف بعظامٍ من خروفٍ مذبوحٍ إلى كلبٍ جريح:

- هذا البيت أصحابه في أمريكا منذ عشر سنوات، ألن ننتهي من هذا السؤال ؟ !. وأغلقت الباب بعنفٍ.

تفحص الرجل الدرج، نظر نحو السطح، فهم ما حصل ودون أن أسمع ما قاله بعد أن نزلنا، غادرت الحارة، وأنا أمسح بكم قميصي مخاط أنفي، وثمة خوفٌ فظيعٌ ارتسم في عقلي المرتبك وأنا أتخيله يعاقبني!!.

كنت محقاً في خوفي فهو لن يسمعني، وكي أتخلص مما وقعت فيه فقد قبلت أن أقايض عقلي المرتبك على الخداع قبل وصوله على حين غرة والفزع يعتصر خلاصة قلبي.

" - ماذا لو حضر فجأة وشاهدني وأنا أضع علب الكرتون الفارغة محل البضاعة المسروقة، ما سيفعل بي ؟ أي عقاب ينتظرني؟ ".

كان لتأخره رحمة تنزلت من السماء كي تنقذني ووجهي البائس المعفر بصفرة الفزع الكامنة داخل أوتار روحي الممزقة كانت تتمنى الموت كلما تذكرت ما حصل معي وما سيفعل بي !.

حين دخل المحل، ارتجت الأرض تحت قدميّ الصغيرتين وحين رآني على هذا الشكل استفسر عن أسباب شحوبي فأجبته مرتعشاً وأنا أجتر الكلام بتوعك الخوف:

- بطني تؤلمني، لم أبعْ شيئاً، أيمكنني الذهاب ؟

وكأني سمعته وأنا أحمل محفظتي و"صدريتي" مثل الحمامة في وقت دنو أجلها يقول :

- اذهب من وجهي سأغلق المحل، سأعمل بسطة لبيع "الخيار" افتحا مشفى، هي الأخرى متعللة، الله يلعن الساعة التي جمعتني وإياكم!

ركضت مذعوراً وكلماته تطـاردني، تلسـعني، تخـزني مثـل شوك "افتحا مشفى، الله يلعن ال !"

دخلت المـنزل لاهثـاً، وجـدت الضـباب معششـاً في أرجـاء المــنزل فعربــد الظلام في داخلي، أمي وجــدتي تتشــاجران وقشعريرة باردة تسري في عروقي فأرغب بالتقيؤ!

تحرد جدتي وكعادة أمي في وساوسـها من النظافـة تنـدب حظها من نكد ما تفعله جدتي، لتعود من جديد تمـارس جنونهـا في مسك الليفة والصابون من دون أن تلتفت نحوي أو تسألني :

- ما بك؟ لمَ أنت أصفر كالزعفران ؟.

في ذلـك اليـوم تكـورت على الأريكـة مرتجفـاً من شـدة الخـوف، وأنـا أسـأل نفسـي: " مـاذا لـو اكتشـف أن العلب فارغة ؟".

فأتخيلـه قادمـاً نحـوي والخرطـوم في يـده، ويـد العم أبي حسن تربت كتفي :

- هيا، انهض، وقت الطعام !.

- 2 -

كان السجين أبو حسن يدعوني إلى الطعـام، وكنت أناديه بعمي تلك الكلمة التي حُرمت منها وعـذبتني كثـيراً وأنـا أفتش عن أسباب ضياعها في أسرتنا، واليـوم الرجـل السـجين يطلب مني أن أشاركه الطعام الذي أحضـرته زوجتـه، فـأذكر أني في منزلنا كنت أتسلل إلى المطبخ لأتناول مما يروق لي أكله وهــو داخل الثلاجة،لأننـا كنـا نسـمع على مصـاريف الطـبيخ في بيتنـا الشتيمة تلو الشتيمة من وجه طافح بالعبوس، وجـدتي بعـد أن تملأ معـدتها، تسـترخي على "الديوانـة "، تمـدّ رجليهـا وتتـابع تحريضها من ناموس المحبة قائلة :

- ارحموه، الله يدبره.

كـانت تشـبه الحـيزبون السـاحرة، وكـانت لا تتـوانى عن التدخل في كـلّ كبـيرة وصغيرة كأنهـا سـيدة سـيدات عصـرها، وحين تواتيها اللحظة المشـتهاة، اللحظـة الملائمة، والـتي تفـك إزار التلاحم الوجـداني بين شـريكين يفصـل مـا بينهمـا التـودد والاتصال الروحي تندد بتشدق:

- طلقهــا، يكفيــك القهــر والمقت، وأنــا أزوجــك ســت "الستات"! ما الذي يجعلك تصبر على شوك الصبّار، الأولاد لن يصيبهم مكروه، فكر في نفسك وفي شبابك الضائع !.

آهٍ يا جدة، أقولها بألمٍ، مـا أنـا الـرب كي أحاسـبك، ولا أنـا القاضــي المســؤول عن جنايتــك في التفريــق بين والــديّ كي أحكم عليك أو على أمي التي لم تتحمل غرورك وسيطرتك.

ابتعدتْ عنـك صـامتة لـيرتفع الشـرخ بينكمـا، وحين تركـك تمسكين بمقود الطوفان غمرنا الحزن، وأنتِ تـثرثرين بصـوتك المتلون بما يفرغ شحنات حقدك وكراهيتك، لماذا كنتِ تكرهين أمي ؟ لماذا ؟ !.

كنت تخـترعين الحكايـات الـتي تسـلب عقـول الصـغار، وتشتت أفكار الكبار، وكنت تسـهبين في السـرد لدرجـة تفـوق أمهر " الحكواتية "، كانت هوايتك، وسـر نجـاح ثرثرتـك الـتي لا

تـرحم! كنت تشـمين رائحـة الشـجار فتنتعشـين وتنتظـرين أن يصرخ والدي خلف أمي الراحلة إلى بيت أهلها:

- " درب الصد ما رد" !

ما كنت تنسجينه لا يشبه خيـوط العنكبـوت حـتى! أرسـمك في كل يومٍ، بل في كل لحظـةٍ بملايين الصـور، أمزقهـا، أعيـد رسمك من جديدٍ فلا تخرج غير صورة واحدة ؛ امـرأة من نـوعٍ لا تستحق أن نحترمها أو نطلب لشيخوختها الرحمة!!.

أنا نزقٌ، أعصابي متوترة، لأني أصبحت أتحدث عنك بهـذه الصـورة القبيحـة، لكنهـا الحقيقـة، والسـر المـدفون في صـدر المغلـوب على دنيـاه يجب أن يقـرأ عالمـه كـلّ الذين يؤمنـون بعالم الطفولة كي يحاسبوك أما قيل :

- ما أغلى من الولد إلا ولد الولد.

قتلت الفرح والأمان في طفولتي، والشـريك والـدي، وهـل يمكنه ألا يكون موالياً لصلفك وسيطرتك عليه، وقـد تركتـه بين يديكِ وحيداً، بعيداً عن إخوته وأخواتـه، بعيـداً عن جـده وجدتـه، بعيداً عنهم جميعاً، تتشاجرين وتخـرجين!، وهـو داخـل أحشـائك لم يولدْ بعد! وكنتِ لا تعرفين إن كان المولود ذكراً أو أنثى !!

أيعقل أن يكون الذي حصـل معـك من سـطوة الجهـل؟ أم من انشطار طبيعتـك على الرضـوخ أمـام الرجـل، أو أي كـائن كان ؟ أم من تلك التي انتقلت إلينا كداء وراثي لا يمكن علاجه، عداوة "الكنة والحماة"؟.

كنتِ تحرقين قلوبنـا وأنتِ تسـردين القصـة، قصـة طلاقـك من زوجك، كنتِ تقولين أنك من الأيام الأولى، بل من الأسابيع الأولى اكتشفت بخله وشح نفسه والتي كانت السـبب الـرئيس في انهزامك إلى بيت أخيك تطالبين بالطلاق؟!.

ما أسهل هذه الكلمة على نفسك وما أقوى جبروت المرأة التي اغتالت فرح نفسها أولاً، ومن ثم ألحقتـه بنكـد العيش مـع زوجة ابنها بعد أن أرضعته من وخيم وهمها بالسيطرة عليه من دون الناس جميعاً ما أرضعته!.

أبي ضحية الرحم "المعفـرت" وأنـا ضـحية وجـودي وسـط شرخهم، وإخوتي، وأطفال كثيرون تدفعون بنا نحو ريح الوقيعة الظالمة، لنعيش في حضيض الشوارع والطرقات بلا أخلاق وبلا رادع يمنع عنا الأيدي غير الأمينة التي تصـيدنا بشـباكها لتمضـي بنا على هواهـا، كم طفلاً كنـا في دار الأحـداث؟ من سـأل عنـه أهله؟ من خرج بعدي من الدار ولم يعد إليها؟؟!.

صوت الصديق والشفيع لي عند زمرة الغاضـبين الحاقـدين يُوقظني ويُنبهني من شرودي قائلاً:

- ألن ننتهي من قصة الشرود؟ هيا، بسمل ومدّ يدك!.

كان صحن " الكبة النية " مرصوفاً رصفاً دقيقاً بطريقة فنية تثير شهية المعدة نحو الطعام، وحين أمسكت بواحدةٍ تساءلت:

- هل وضعت لها في قطعة "الكبة النية" تعويذة على الموافقة والقبول؟

لم تكن أمي تدرك مدى قدرتي على التخزين، فذاكرتي شديدة الحساسية ولاقطة من نوع ماهر، كانت تحكي لجارتنا أم عبد الله عن قصة زواجها بأبي كلما أحست بالضيق منه وبالعجز على مواجهته،وأنا بدوري وبحكم وجودي في المنزل كنت أجلس إلى جوارهما ألتقط كلّ حرف من حروف القصة!!

حين التقت جدتي بأمي في حمام السوق، وحين أعجبتها، تفحصت جسمها البلوري بقوامها الرشيق، وعينيها الخضراوين، وحين أبدت إعجاباً في إطراء سحر جدتي لأمي قامت بدورها على أكمل وجهٍ بعد أن هيأت الجو المناسب في مكاشفة جدي عن موضوع الخطبة والزواج.

أسئلتي الحيرى وجدت عنها كلّ الأجوبة يوم كبرت ووقفت عند دقائق الأشياء... أخزن... أحلل... أركب... لسانها الذي يقطر مثل شهد العسل وحنكتها المتميزة في إقناع الحاضرين أعطياني الجواب الأول، أما الجواب الثاني وهو الأهم فهو أنهم كانوا أمام قدراتها الشخصية مسلوبين !.

جدي عنيف وقاس، كلمته نافذة، وعلى الأخص عندما يطرق الباب خاطب له صفات أبي الفريدة !.

كان يعتقد أن زواج البنات يعجل بسترهن ليخلي نفسه من المسؤولية، والمصيبة أنهم حين تعرفوا على أبي أجمع الكل في مقولة تعزز وضعه أكثر :

- شاب وحيد لأمه، "لا وراءه ولا قدامه" لو كانت أمه نار ما حرقت وهو رجل يحب العمل، وهذا طلبنا !.

في هذه الحالات من الاضطرابات الاجتماعية علق أبي في رحم جدتي، وعلقت أنا في رحم أمي!.

وبدلاً من أن ُتزهر الزغاريد بأصدائها الرنانة الصادحة يوم ولادتي بعد وفاة ذكرين وأنثى، تحولت الغرفة إلى "تابوت" من نوعٍ غريبٍ ومدهشٍ، فالضيفة زهرية " خانم " صديقة جدتي تصرفت بلا مشورة من صاحبة البيت أمي وقتما نهضت وغيرت من مكان نومي ونهرت خالتي أم جميل التي كانت تحاول أن تلف جسدي بقماطٍ يجعلني متماسكاً، ليبدأ شجار أم ٍ نسيت آلام المخاض ولم تنس ما فعلته صديقة جدتي.

الراوي أمي والمستمع الحقيقي أنا، والحديث كان لأم عبد الله وليس معي، حينذاك كان عمري خمسة أعوام، خمس

سنوات كان عمري، والكلام الذي حفظته يفـوق سـنين عمـري بربع قرن على الأقل!!

في ظل هـذا الجـو المتلبـد المشـحون بالمشـاكل والـذي كهربته آدمية لا صلة قرابة تربطنا بهـا سـوى هـذه الصـحبة مـع جدتي كنت أرضع من ثدي أمي التوتر والقلق وربما الحقد كمـا رضع أبي من ثدي أمه !!

وكـان عليهـا بعـد هـذه المشـكلة أن تنهض من فـراش النفـاس مرغمـة مكرهـة إلى بيت جـدتي تطلب منهـا السـماح والغفران بعد أن تقدم ولاء الطاعة والاحترام!!.

الدار القابعة في زقاق الطويل، كانت واسـعة، فيهـا ثلاث غرف ذات "حوش" كبيرة تحيط بها من كـلّ الأطـراف" تنكـات الزريعة" التي أكلها الصدأ، وصديقات جدتي كن لا يغادرن بيتهـا إلا وقت إغلاق مواخير الليل، وإن اضطرت إحـداهن إلى النـوم فلا مانع يمنع، ولا عائق يعيق بقاءهـا، لأنهـا على شـاكلة جـدتي إما مطلقة أو أرملة! وعلى والدي أن يدفع المصـاريف اللازمـة وغـير اللازمـة، إضـافة إلى فواتـير المـاء والكهربـاء من دون سؤال! وإذا ما حصل نوع من التلميح إلى ضرورة الاقتصـاد مـا تنفك تثور فيسكت على مضضٍ !!.

مع نمو هذه الأحـداث ابتـدأت أنمـو، لأدرك بعض الأشـياء المثيرة الهامة، والتي ما زالت عالقة في الذاكرة !.

كنت يومها ألعب بكيس النايلون حين سمعنا الطرق بعنفٍ على الباب، وبقسوة حادة كادت الجدران تساقط !.

في مكاني تسمرت وحين نهضت أمي سارعتُ إلى طرف ثوبها وأمسكت به، بينمـا تقـدمت هي بارتيـاٍح ووجـلٍ بعـد أن حملت أختي الرضيعة وسألت :

- منْ... منْ يطرق الباب ؟

فتحت أمي البـاب، عقـدت لسـاني الدهشـة حين رأيتهـا تقـذف بنفسـها على الأرض مثـل نعجـة أصـيبت حنجرتهـا وهي تشد شـعر رأسـها بعـد أن رمت بالحجـاب على الأرض وراحت تضرب وجهها براحتي كفيها كأن كارثة عظيمة حلت!

هذا الاقتحام المرعب أجفل أمي كما أخـافني، وفي هـذه اللحظـة المرعبـة ومن تلـك الصـدمة المفاجئـة هـربت الـدماء البيضاء من صدرها مما اضطر والدي إلى إصابته بلعنة تنضـاف إلى لعناته في المصروف الجديد من شراء حليب " نيدو".

هذه الحادثة تركت الأثر المحزن الفظيع في مشاعر أمي نحو جدتي حين عرفت من توفى! أيعقل ما ذكرته أمي لجارتها ؟! ألا تذهبين لوداع أمك وهي في كفنها ؟! أي حقـد ذاك الـذي يستعر أوّاره في قلبك لتزاولينه في أحلك الظروف قتامة؟.

ماتت أمك - جدة أبي - وفي قلبها حسرة أليمة من تمردك وجبروتك ولؤمك.

لا أعتقد بل أجزم بعد هذا الحدث أن الكره قد تفاقم وأن البغضاء قد ازدادت، لينشق الطرفان على بعضهما من حالة اللامبالاة التي كانت تقابل بها أمي جدتي لتتسع مساحة الهوة بكلّ مفاصلها السلبية نحو التأفف والمقت وزفرات الشكوى!!.

داخل هذه الجدران ووراء القضبان الحديدية تستيقظ آلامي الشاعرة بأحزاني حين يسأل أبو حسن :

- لماذا لا تأكل الخبز؟.

سؤال يسقط في روحي مثل بركان تفجره هزة من ذكرى متشحة بالسواد، وبوجوم الشارد لا أجيبه، فتداعيات الماضي بكل حرائقها تثير في نفسي تقززاً ساخطاً، فأؤثر الصمت على الكلام، وأنسحب إلى سريري، وذاك اليوم العالق في ذاكرة الطفولة ينبش الماضي، يعيد الصورة الدامعة، يفتح سطور الحكاية !.

كنت المسؤول عن شراء الخبز قبل الذهاب إلى المدرسة، وفي ذلك اليوم المشؤوم كان الخبز ساخناً، فمددته على الرصيف، وحتى لا أتأخر عن دوام المدرسة، جمعت الأرغفة على عجلٍ وأسرعت إلى البيت، أسرعت إلى البيت لأجد أني ارتكبت جريمة بشعة، والله العظيم نسيت، خانتني ذاكرتي، نعم نسيت بقية "الفراطة" على طرف الرصيف، فماذا كان عقابي ؟ كان تأنيباً مقذعاً وضرباً مبرحاً، وصدى كلماته الجارحة التي حفرت أخاديد سكنها في أذني لا يغادر سمعي:

- ولا... ك... حيوان... ابن الكلب... أين البقية؟ هل خبأتها؟.

وفعلاً خبأت رأسي من بين صفعات يديه مثل يتيم جرده عدو مستهتر !.

وقد أوصى الله باليتيم، أما كان رسول البشرية يتيماً فرعاه جده عبد المطلب، وجدي طليق جدتي لا وجود لحنانه في حياتنا، وجدتي لا تطيق أمي تنفر منها وتتذمر وقتما تشاهدها قد أبدت ارتياحاً، فأين اليتم في كل هذا !!.

أهو في أمي الغارقة في مطبخها تولي الطناجر والصحون من اهتمامها أكثر مما يجب أن تهتم بأولادها؟.

أمْ هو في أبي صريع أرباحه التي يوهمنا أنها خسائر بسببنا ؟!

أمْ هو في هذه المشاحنات المتموسقة على قـرع طبـول تقـديم الضـحية إلى وحش الغابـة في رقصـة من مـوت الأمـل فقصة الحرد عـادة يجب أن نتلاءم مـع طقوسـها الدميمـة حين تحمل واحدة من الاثنتين "بقجة " حاجاتها وتمضي!!؟.

في ذلك اليوم الملعون سألني رفيقي صبحي:

- ما بك؟.

ابتلعت غصـة الدمعـة الـتي حـاولت حجزهـا في عيـني وبانكسار ذليل قلت:

- بابا طرد أمي!!؟

انهمرت دموعي أمامه رغماً عن إرادتي فـأخرج من جيب الصـدرية منديلـه الـورقي "المجعلـك" والـذي بـدا لي أنـه غـير نظيف وقدمه لي كي أمسح دموعي التي خانت قوتي وبصـوتٍ ضعيفٍ مجروحٍ حدثته عن قصة الخبز والمبلغ الذي نسيته على الرصيف وما سبب لي هذا السهو !

ولأن أمي حاولت أن تدافع عني لترد يده القاسية ضربها و طردها !!.

اختنق الجواب في حلق الصبي فسادنا صمتٌ عميقٌ، وبعد الصمت تأبط بعضنا ذراع بعض، وبدأنا نمشي ببطءٍ كأننا نمشي في جنازة.

وصـلنا الجـامع، كـان الـوقت ظهـراً وكـان بابه مفتوحـاً والمصلون يدخلون فرادى، وقفنا هنيهة نتأمل دخـول المصـلين كأننا ُنقر في ذاكرتنا شيئاً نعرفه ولا نمارسه !.

عند مفرق "الجابرية" وقفنا ننتظر الإشارة الضوئية، وقبل أن تفتح للمشاة الضوء الأحمر سارعنا في قطع الشـارع جريـاً إلى باب حديقة "ميسلون".

كانت الليرات الخمس ما تزال في جيبي، وحين تلمسـتها لمعت في ذهني فكرة!.

- تعالَ... نشتري "صياح" ونلعب!.

- أنا لا أملك نقوداً.

- أنا معي!.

- ولكنك قلت أنه ثمن الخبز ليوم غد!

- فلقة وما كانت!

في مساء ذلك اليوم خمنت أن تكون عقوبتي فلقة كتلـك الـتي جعلت أمي تحـرد!؛ لم أكن صـاحب خيـال جـامح لأتصـور نمطاً مخالفاً للنمط الذي تعودت عليه!.

من كرهت أمي وجعلتني أكره اسمها، جلست تندب حظها وحظ ولدها، مما أثار ضغينته نحوي، ربما كان يحاول ضبط أعصابه أكثر ليس من أجلي بل من أجل نفسه، وعكته الصحية بدت واضحة الملامح...كح... كح "أتشوم".

ورغم عطاسه المتواتر وكحته الحادة، فقد أحضر كرسياً ووضعه في الشرفة ثم أمسك يدي وطالبني بالجلوس عليه، ثم ربطني بواسطة حبل غسيل وتركني في دكنة الليل أعارك البرد وصفير الريح حتى أقرست البرودة أصابعي فبدوت مثل أسير حكم عليه سيد من أسياد الجاهلية لأنه ارتدّ عن عبادة الأصنام!.

كانت المداخن على السطوح المجاورة والمقابلة لسطح بيتنا مع هوائيات التلفزة ترمقني، أحسست بها بشراً تخاطبني ترثي حالتي النكراء والدخان المتصاعد من فوهات المداخن يتراقص أمام عيني مثل أشباح أطيافها لا تخيفني لأنه سرعان ما كان يتبدد في جوف الظلام والغريب في هذه الليلة ما تراءى لي أن الدخان يتحول إلى دموعٍ مسافرة إلى حيث يبكي القمر فمأساة الطفل قد بدأت!

بعد منتصف الليل فتحتْ باب الشرفة جدتي وأقبلتْ كي تفك وثاقي وهي تدمدم:

- الله يصلح الأمر، ما كان لازم تكرر الغلط!.

دخلت إلى الصالون الصغير وأنا أرتجف من شدة البرد والخوف كان نائماً، سمعت صوت شخيره، كثيراً ما كان شخيره يعلو، وكثيراً ما أبدت أمي انزعاجها من صوت شخيره وتركته بمفرده واندست بيننا في الفراش، ولكن ماذا أصابني بعد أن دخلت الغرفة ؟، أنا أسعل وأعطس وهذا السعال مع العطاس أقعدني في الفراش بضعة أيام بعد أن ارتفعت حرارتي وأثرت على معدتي التي بدأت تلفظ كلّ ما أتناوله من طعام أو ماء، حينئذٍ أخبرته جدتي بسوء صحتي فأخذني إلى الطبيب من دون أن يقول شيئاً، أي شيء يجعلني أحسّ أنه أبي، هو لم يسأل والذي سأل عني رفيقي صبحي، وما إن فتحت الباب جدتي ورأته في وجهها حتى صاحت به مثل عفريت خرج من شق حائط:

- اذهب من هنا يا وجه البلاء والنحس.

رغم عدم تماثلي للشفاء سمعت وقع أقدامه تقعقع على السلالم مثل مجنون ؛ وما إن تماثلت إلى الشفاء، وعدت إلى المدرسة ودخلت الصف، حتى انتعشت روحي من كلمات المعلمة:

- معافى يا غالب، مكانك في المقعد شاغر لا يشغله سواك.

كنت أرى في وجهها ما أبحث عنه، دفء غامر في وجهٍ باسمٍ يشع حيوية وحناناً، أذكر أن صوتها كان ينثال في قلبي الصغير مثل لحنٍ شجيٍ، وحين تمسك بأصابعها " الطبشورة " لتكتب على السبورة تغمض عيون ذاكرتي عن مشاكل البيت وقصة الحرد وحكايات الثرثرة التي لا تنتهي، وتفتحها على تلقي المعلومات، ولولا خوفي من تجريم تلميذ لا يقصد إساءة لقذفت بنفسي بين أحضانها باكياً ألتمس بعض حنان أفتقده وافتقدته!.

ما أجمل هذه الذكرى، وما أجمل أن تبرع في كتابة موضوع تعبير وتجده معلقاً في مجلة الحائط بعد أن أثنت الإدارة على جهدك في التفوق!

نعم كنت من أفضل التلاميذ الذين يتقنون فن التعبير وكانت علامتي دائماً العلامة المثلى، وفي البيت والمحل لا أسمع غير " ولاك تعال، ولاك حيوان ابن الكلب " وثرثرة "الحكواتية" عن طلاقها وكرهها لأمي حتى طوى العام الدراسي حقيبة السفر؛ وحصلتُ على وثيقة النجاح للمرحلة الابتدائية بتقديرٍ ممتازٍ.

كما توقعت لم يفرح والدي بحصولي على درجةٍ في تفوقٍ، ولم يكن راغباً في تسجيلي بالإعدادية، كان كلّ همه أن أتعلم مصلحة، لكنه أمام إصرار أمي التي أعادتها إلينا عمتها وإلحاحي على متابعة التعليم فلقد وافق كارهاً.

اختار موقع مدرسة تقع في منتصف الطريق، واحد يؤدي إلى منزلنا والآخر إلى محلنا؛ وحين رجوته :

- بابا، الله يوفقك رفاقي سجلوا في إعدادية الحكمة وأنا أريد أن أكون معهم.

أجابني بتهكمٍ شديد اللكنة:

- من أجل "الفلت" يا ولد، هنا أفضل، أنا أعرف مصلحتك أكثر منك !

وافقت مكرهاً، وكما يفرح الأطفال بملابس العيد فرحت باللباس الجديد، بذلة فتوة بلونها العسكري الجميل، وكطير تلونت أجنحته كنت أقطع الشارع بسرعة، ربما لأني بدوت أنيقاً، وربما لأني أحسست بدخول مرحلة جديدة في عمري.

وكان عليّ أن أتأقلم مع هذا الوضع، وفعلاً حاولت التأقلم ولكنْ من حوّل غالب التلميذ الخجول إلى تلميذٍ مشاغبٍ يميل إلى الفوضى والاندماج مع الذين يخلقون البلبلة وقتَ تبادل المدرسين!

المرحلة كانت جديدة عليّ وصعبة، وأكثر الوجوه كانت غريبة عني، ما بدأت أمارسه وما كنا نفعله يغزو ذاكرتي، يفتح

الصور العتيقة الـتي لم يطمسـها بعـدُ زمـني الأسـير، بشـعرها الناعس الدامس والذي كان ينوس على المنكبين كـانت تـدخل علينا وهي تبتسم تلك الابتسامة التي كانت تثير شهوة الطفولة إلى تقليدها حين تنطق :

.oh---pleas---puplis

كنـا لا نصـغي إلى الـدرس بقـدر مـا كنـا نتأمـل قوامهـا الممشـوق وأناقتهـا الجميلـة الـتي تُفـرح القلب لتبـدأ شـقاوة المراهقة ونحن نتأمل في أصابع يدها اليمنى وكيف كـانت تنفخ الدخان، الذي ابتدأنا ننفخ دخانه في مراحيض المدرسة!.

كنـا بحـذر نـراقب السـاحة من عيـون لجنـة الإنضـباط المدرسية وخاصة في دورة الميـاه، حـتى فضـحنا مـا أسـميناه نمّام بدل تمام.

يومها ساقونا مثل البهائم إلى غرفة المدير، الموجه ولجنة الانضباط، ومع إصرار المدير على العقوبـة بالفصـل، كـان لابـدّ من إحضار أولياء الأمور.

الـذي آلمـني وجعلـني أنضـم إلى زمـرة المنتقمين هـذه النظرة الشزراء التي رسمها في ذاكرتي لحظة رمقني بها ذلك الخبيث نمام.

كنت قد انضممت إلى الشلة، شـكلنا حولـه دائـرة وبـدأنا نضربه حـتى تـدخل بعض من المـارة ففرقونـا عن بعضـنا وهم يلعنون سوء التربية وما آلت إليه شوارعنا، فابتعـدنا كـلّ واحـدٍ منا يجر أذيال خيبته من الخوف الذي خامره !

كالعـادة كـانت أمي حردانـة كمـا تعودنـا! وكـان عليّ أن أذهب إليها كي أستعطف قلبهـا الغـافي عن طفولتنـا راجيـاً أن تتدبر الأمر قبل أن يعلم والدي.

في بيت جدي رجوتهـا بثغـاءٍ من دمـوع ذرفتهـا عينـاي ألا تدعني بين يديه أضرب، وبعد أن قبلتُ يديها ورجليها وأنا أبكي، رفَ قلبهـا وهمت عيناها بالـدموع فقرصـت أذنيّ ومسـحت دموعي براحة كفها قائلة:

- توبة، قل توبة لن تكرر هذا.

- والله العظيم توبة.

في هـذه اللحظـة من هـذا اليـوم المشـؤوم تسـربل في عميـق روحي حقـد غـريب كحقـد البركـان على الأرض، رفض خالي تدخل أمي، ووقف جدي مثل حائط مهـترئ يخشـى على نفسه من الانهيار يؤازر خالي، وهذا ما أشعرني نحوهمـا بنفـورٍ تام، لكن أمي رغم ضعفها وانكسـارها وقفت بعـد أن تحـزمت بإزار القوة، قوة الأم التي تردّ عن ولدها كيد الأحقاد في كسـر شوكة الخؤولة، وقفت لتقول وبجرأةٍ غير معهودةٍ:

- لا علاقة لأحد بأولادي، وسأذهب إلى المدرسة.

في المدرسة تعهدت أمي أني لن أكرر هذا، ولسوف تشكوني إلى والدي المسافر الآن إلى (الشام) تقصد دمشق من أجل شراء بضاعة جديدة للعيد.

المسكينة كذبت عليهم، أوهمت المدير والموجه أن والدي مسافر فاكتفى المدير بتعليق توبيخٍ في لوحة الإعلانات بعد أن اعتذرتُ متأسفاً حين قبل المدير بكلام أمي التي أكدت له أنها ستهتم بوضعي وتراقبني.

بعد يومين تدخلت عمة أمي في عودتها إلينا؛ وبين ظلال الأيام والأسابيع الراكدة زعق في وجهي كمن مسّه كهرباء وهو يقرأ علاماتي المتدنية عن الفصل الأول.

لم أرتبكْ من معرفته، ولم أحترْ من أين عرف، لأن موجه المدرسة والذي أصبح زائراً للمحل بين آونة وأخرى، لم تكن زيارته عن طريق المصادفة فهو وإن توسط لي عند المدير في قبول اعتذاري وتعهد أمي فذلك لغاية في نفسه نبتت فجأة حين سمع بملكية والدي لمحل يبيع فيه الحاجات الولادية وبعض الحاجات النسائية، لأنه من يومها ابتدأ يتردد على المحل، يأخذ ما يلزمه من احتياجات أولاده وزوجته تاركاً الدفع لأول الشهر.

مستغرباً ومستهجناً تساءلت سراً عن سبب سكوت أبي على تستر أمي، لماذا لم تقمْ قيامته التي تعودنا على قيامتها في ثورةٍ من وعيدٍ ؟! هل هناك ما يخفيه ؟ أمْ أن أمي أخبرته في غيابي عنهما ونالها من تجريحٍ تعودت عليه ما نالها ورجته ألاّ يثير ضجة حول الموضوع كي أنسى موضوع السكائر ولا أعود إليه!.

-3 -

في هذه الحياة التعيسة كان لا بدّ لي من إيجاد صديق يؤنس وحشة الفراغ، فالمحل كان يحتاج إلى شخص أكثر وعياً وأكثر إدراكاً لما يحصل من ردود أفعال مع بعض الزبائن الذين يستاؤون من غلاء الأسعار بعد بعثرة العديد من الملابس الولادية، وكان يترتب عليّ بعد خروجهم أن أعيد كلّ شيء إلى مكانه!.

وبحثاً عن صديق لا يشي مثل نمّام فقد كنت أنتظر قطة أمام باب المحل تناديني بموائها العذب الرقيق، قطة وليس قطاً فالقط يأكل أولاده والقطة تفرُّ بنفسها بعيداً لتضع صغارها وترعاهم حتى يكبروا، حينذاك تعود إلى قطها، ولأنها تعودت أن تراني وحيداً كانت تجلس على قوائمها بشموخٍ وهي تنظر في وجهي بعينين تلمعان كأنها تخاطبني !.

كنت ُأغبطها على حريتها وممارستها طقوس التجول بين حواري وشوارع الجامع الفرعية، وكنت أتمنى بغفلة عن العالم أن أتحول إلى قطٍ مثلها أجري من مكان لآخرٍ، بلا رقيبٍ وبلا منكدٍ، وبلا سوط جلادٍ!

وأنا في بحبوحةٍ من سديم الخيال جاءني والعقدة تزور حاجبيه وكعادته سأل:

- هل بعت شيئاً؟.

ولأنه كان على يقينٍ أن حركة ركود الأسواق ليست شخصية ولا محلية فقد اشترى جهاز " فيديو " واستأجر عدداً من الأشرطة لأفلام بوليسية واجتماعية وكما كان مكتوباً على واحدٍ منهم - " كومندوس " للكبار- بعد أن أغلق المحل وذهبنا إلى البيت يحمل الجهاز على صدره بكلتا يديه وأنا أحمل كيس الأشرطة !.

على حدّ زعمه هذه الأفلام توقظ الخيال، وتهدئ النفس، وتغذي الفكر إضافة إلى القضاء على الملل، هكذا قال لجدتي.

فرحنا بدخول السينما إلى بيتنا وجلسنا صامتين نتفرج نتابع المشاهد بعيونٍ واجفةٍ ترف أهدابها مرتعشة كلما شاهدنا قتيلاً يتضرج بدمه، فالحرب النازية تثير الخوف والتقزز، والنازية كلمة واحدة في عددٍ كبيرٍ من أبواب التعدي والتحدي

والتردي.

بعـد الفيلم الحـربي، وضـع فيلمـاً سياسـياً، إذا لم تخن الذاكرة قلمي كان اسمه /المحـترف/، ولم يكن أقـل شـأناً من الفيلم الأول.

صراع الساسة على السياسة أمرٌ مخيـفٌ، والأمـر الأكـثر إخافة وإجهاضاً لأعصاب الطفولة هذه الهياكل التي كانت تخرج من القبور وهي تقهقه مزمجرة وسـط الظلام بأصـوات ضـاجة صاخبة واللون الأزرق الغامق كان يتماوج مع الحركة الدامية!

كنا مثل تماثيل جامدة يُمسك الخوف بخناقنا أيمّا إمسـاك حتى بالت أختي فريدة على البساط ولم تنهض إلى الحمـام إلا وأمي تسحبها من يدها وهي تلعن بخفوتٍ مكبوتٍ هذه الجلسة حتى صرخ فينا :

- هيا إلى النوم!.

بعـد هـذه المشـاهدات المثـيرة للأعصـاب تلبسـني الأرق وتفتحت في داخلي مشاعر مبكرة في أن أكون صاحب سلطة أحكم، لا أحاكم أعجبتني مواقف انتصار البطل !.

وحتى أكون بطلاً حقيقياً لا بطلاً أسطورياً فقد أكدّ والـدي في طلبه هذه المرة على ترك المدرسة بعد أن كـان مـا ينفـك يردد:

- مـاذا ستصـبح، مهندسـاً، طبيبـاً، معلم مدرسـة مثـل موجهك؟ وإن أصبحت طبيباً من أين لك أن تشتري عيادة ؟

اسـتغل الـزمن، تعلم صـنعة، زميلـك صـلاح كسـب الـوقت وعما قريب يصبح معلماً تبحث عنه أكبر "ورشات" المدينة!.

هـذا التحطيم جعلـني أبحث عن تعـويضٍ آخـر أثبت من خلالـه قـدراتي، وقـدراتي آنـذاك كـانت قـد بـدأت تتجـه نحـو عواطفي التي تبرعمت قبل الأوان على نظـرات بنت الجـيران وهذه اللهفة الملحوظة حين تراني.

ولكي أكون جديراً بهذه النظـرات، امتـدت يـدي إلى درج الغلة !.

أجل امتـدت يـدي إلى درج الغلـة، لم تكن المـرة الأولى، لكنهـا من أجـل شـراء كتـاب رسـائل العشـاق كـانت الأولى! اخترت رسالة راقت لي كلماتها، نقلتها بأمانة، ورسمت أسـفل الصـفحة قلبـاً زينتـه بزهـور من رسـم يـدي، لونتهـا بـالأحمر والأصـفر، وطلبت من أخـتي فريـدة أن تسـلمها سـراً إلى بنت جارتنا أم نوري!

من هنا ابتدأت أحاسيس عواطفي ومشاعري تقودني إلى الإدمان على مـدّ يـدي إلى درج الغلـة والنـداء الخفي يبـتر كـلّ تـــــأنيب "مـــــع هـــــذا الصـــــنف من الآبـــــاء لا ينفع التعفف، خذْ، عشْ كما تريد أنت، لا، كما يريد هو!".

هذا النداء من هذا الطغيان أصبح قريب الشـبه من عـواء الذئاب وقتمـا تجـوع، الحرمـان يتمـرد على الخـوف، مصـاهرة

الأفلام تنفي وجود دارسٍ يسعى نحو مستقبله، فـأنعطف نحـو الكسل!.

ومن الطبيعي أن يجعل الموجه من كسـلي نافـذة تجعلـه يعرض على أبي أن يعطيني دروساً خصوصية !

تخيلت وجهه وقد فرت الدماء منـه بعـد أن بـاءت أحلامـه بالفشل! البائس لم يكن يدري أن والـدي أكـثر حنكـة وفراسـة منه للتملص من مسؤولية مصاريف مدرسـتي، والأهم من هـذا كله أنه غـير مهتم بتعليمي كـان يأمـل أن أتـرك المدرسـة وأن أنصرف إلى تعلم صنعة كي أعينـه على مصـاريف الـبيت الـتي أنهكته كما كان يردد على مسـامعنا، والغـريب الـذي حـدث أن والدي قـد تـذكر أخـيراً أن تسـتر أمي على قصـة التـدخين في المدرسة حطم وعيه لهذا حين عاد وقت راحته في فترة الغداء صرخ في وجهها :

- كله منك، ينقصني واحد حتى تكمل خسـارتي، آخـر يـوم سأغلق المحل وأجلس مثل"الحريم" في زاوية الـبيت، وموتـوا من الجوع !.

أمام ذلك التجريح تنسفح دماء أمي وتـنزوي في مطبخهـا وهي تمضغ بلوى أحزانها المنطمرة في صدرها كأنها تقول:

- منك، أمْ من أمك، أمْ من الأولاد؟.

ولأن جدتي كانتٍ موجودة، ولأنها كانت تبحث عن ضـالتها في إشعال فتنةٍ، وبدلاً من أن تـرطب الجـو في ودّ من تسـامح ووئام، ترمي بسهام كلماتها لينفجـر صـوت أمي مخترقـاً حالـة السكون الملتهبة:

- أنا صابرة من أجل الأولاد!

- "دخيلك"على"إيش" صابرة؟ تردد جدتي.

ولأن أمي تعـودت على الحـرد ومـا عـادت تحتمـل كيّ التسلط الأجوف فطوق الصـبر انفـرطت حباتـه تصـرخ بصـوتٍ عالٍ :

- أتريدين أن أترك لك الجمل بما حمل؟!

- لا والله أنا من سأترك لك الدار ومن فيها!

يا فريد تنادي ابنها :

- والله لو كان بيتك كعبـة مشـرفة مـا عـدت داخلـة عليـه "وجوه كالحة ومياه مالحة "... يا الله... " يا بيتي يـا بويتـاتي... يا مسترلي عيوباتي!".

وتخرج مثل قنفذٍ تحجرت أشواكه!.

- 4 -

معاملتـه السـيئة وأدت قنـاعتي في بعض لـيرات كنت أدسها خلسة في جيب بنطالي، ولأن الإحساس بالقهر وبالظلم قد دفعني إلى مـدِّ يـدي حين أشـعر بالحاجـة الشخصـية، فقـد بدأت أفكر بما هو أكبر من ذلك بكثير!.

ورغم شـكوكه الـتي سـاورته غـير مـرةٍ، كـانت أكـاذيبي المفتعلة تجعلني أخرج من خرم الإبـرة حـتى وقعت في شـرك غلطة العمر!.

بعتُ سيدة أنيقة وجميلة بعض أشياء من بينهـا قلم أحمـر الشفاه وقلم أسـود لكحـل العين، لم يكن يخطـر في بـالي أن المرأة ستعود تريد استبدالهما بعد أن أخفيت الثمن في جيـبي، وحين عادت تريد أن تستبدلهما، كان حاضراً فانكشـفت سـوءة ما فعلت!.

وجدت نفسي، بعد خروجها، بين يديه مثل حيوان يتلقفني حائط المحل، وغصص من دموع متحجـرة ازدحمت في حلقي، لتسقط المفاجأة التي أنقذتني، تبددت ملامح الرجـل السـاخط بغضبه المريع إلى بشاشـةٍ أذهلتـني، فـرُحْتُ أحـدق في وجهـه أكثر من كل مرة، "من هذا الرجل ؟ " إنه يقول وبهدوءٍ: - بابا، إذا ممكن تشتري " كازوز".

غرقت في محيط من القهر، كنت غريقاً وأنـا على سـطح الأرض أتنفس، وقيعتي بين يديه انحفـرت في تلافيـف الـذاكرة مثل شامة مرضية لا تعني الصحة أبداً.

إذن تدعني وشأني حين تدخل صاحبتك المحل، هذه الفتـاة الشقراء استحوذت على كلّ ما فيك، أتحسبني غبياً لا أفهم في هذه الأمور ؟.

وحين تخرج يلبسك شيطان الانتقام، ملامحه، شيطان القبور يشبه ملامحك الآن، أسمع صوت قهقهاته، اللون الأزرق يتحول إلى سوادٍ مشوبٍ بالزرقة، ماذا تقول ؟ سأعمل أجيراً عند الكهربائي أبي بكرٍ، وتلك الشقراء ستحل مكاني " يا لرحمة الشقاء !".

بضع دقائق مرت كأننا غرباء لا نعرف بعضنا حتى انسلت خطواتي بعد أن غادرت المحل في أصيل حي الميدان وئيدة، وئيدة أصبحت ألف وأدور في الشارع ذاته من غير أن أعرف ما أريد وعما أبحث حتى تعبت!.

في البيت كان إخوتي ينامون على الأرض بلا غطاءٍ وبلا فراشٍ، وأختي فريدة متكورة مثل حمامة ورقاء حزينة! راعني المشهد، كادت دموعي تتساقط، كان قلبي ينبض بارتعاشٍ باردٍ !!

أيقظت أختي بهدوءٍ :

- فريدة، فريدة انهضي، وحين فتحت عينيها فركتهما ونظرت في وجهي ثم نهضت من غير أن تقول شيئاً.

ساعدتها على مدّ الفراش ووضع "المخدات"، حملتهم واحداً واحداً إلى الفراش، ما أذكره عن الليلة تلك أني كنت شبه نائم، وفي الصباح تأملت الوجوه، كانت فريدة مثل ملاك طاهر فردّ خصلات الشعر على "المخدة" فاحتوتها، اقتربت منها همست برفقٍ :

- فريدة... انهضي.

فتحت عينيها وبخفوتٍ واضحٍ قالت :

- صباح الخير.

- صباح النور.

أورثني استيقاظهم متوعكين من الكآبة والحزن على ترك أمي البيت بعد شجارها مع أبي حين خرجت جدتي شعوراً بالكره نحوها هذه التي تتركنا ولا تجعلنا نشعر بمعنى الحنان والهدوء والأمان، واحدة مثلها لا تستحق أن تكون أماً!!

فتشتُ عن علبة كبريتٍ فلم أجدْ، طلبتُ من ناجي أن يسأل جارتنا أم نوري التي ما إن سمعت بحاجتنا إلى علبة الكبريت حتى سارعت إلينا وهي تدمدم ببعض كلمات خافتة عن حرد أمي !.

وفي غوص معاناتي داخل جدران أحزاني التي تؤويني وإخوتي جعلتني أشعر أني أكبر من عمري بسنواتٍ، وجعلتني أحس أنها أكبر من عمرها بسنواتٍ !.

كانت نظرات عينيها تثيران في نفسي عالماً بدأت أحلم

به وأفكر في كيفيـة الـدخول إليـه، كنت أحس بهـذه المشـاعر تريد أن تفيض على العالم بالجنى وأنـا أرمـق صـدرها النـاهض بإعجـاب فـأقرأ الانشـراح على وجههـا لحظة أحـدق في تكـور نهديها الصغيرين الذين بدأا ينموان من تحت "البلوزة" الضيقة!

والذي كان يثـير دهشـتي جـرأة نـوال حين تختطـف قبلـة سريعة من خـدي بعيـداً عن وجـود أمهـا وتتـوارى مثـل فراشـة كانت لتوها موجودة ثم اختفت!.

في ذلـك الصـباح عملت جارتنـا أم نـوري على تنظيـف الأواني وكنس الأرض ومسحها تسـاعدها أخـتي فريـدة، وبنـاءً على ما طلبته جارتنا أنزلتُ كيس الزبالة، رميته قرب الحاويـة، ولم أدفع بـه إلى جوفهـا، فاشـتممت رائحـة عفن عطن قريبـة الشبه من رائحة نفسي وأفكـاري، تـابعتُ طـريقي نحـو محلنـا بتلكؤ مقصود، فهو ليلة البارحة لم ينمْ معنا، ترى أين نام !.

وبدأت أخمن، ربما كان عند أمه، وربما كـان عنـد واحـدة من فتياته الشقراوات، أو ساهراً عند واحدٍ من أصحابه يلعبـون الورق، فجأة هذه التخمينات توقفت !.

حين شاهدني انطلق من داخل المحـل بسـرعة والعقـدة المرسـومة على حاجبيـه لا تفارقـه، والـتي اقـترنت بلهجتـه القاسية:

- لمَ تأخرت، ألمْ أقلْ لك لا تتأخر، هيا امضِ معي !.

أغلق باب المحل وقفله بالمفتاح، فتبعته مثل جروٍ جـريحٍ ساكتٍ عن النباح، ووقفت أتزود بالصور الجديدة.

تصافحا، تحاورا ببضع كلمات عن أحوال السوق، ثم دعـاه الرجل إلى فنجان قهوة فجلس، شرب القهـوة، وضـع الفنجـان على الأرض، والتفت ناحيتي وبنبرته المتسلطة:

- افتح ذهنـك واسـمع الكلام، لا أريـد شـكاوى ولا مشـاكل أتفهم!!.

تركـني ظلالاً متكسـرة ومضـى، تركـني ظلالاً تئن ليكـبر مقت وحقد من جعلني مسوراً بعفونة الإنجاب وألف غمامة من الغمّ والأسـى تلّـف روحي، ومن الطـبيعي أن يجعلـني هـذا الموقف رافضاً كلّ الرفض أن أكون أجيراً للأجير، فمنذ اللحظة الأولى حاول استفزازي بفرض أوامره عليّ:

- اغسلْ فناجين القهوة وتعالَ ساعدني.

كان أبو بكري خارج الدكان يدخن سيكارته وهو يتراهن مع جاره السمان عن سحب اليانصيب، وحين سمع صـوت صـرخة في أنة صادحة سارع نحونا!.

رميت بالمفك نحو وجهـه فأصـابه جـرح بسـيط في خـده دمى بعض الشيء، فصرخ أبو بكري في وجهي:

- يا بن ال-- ؟!

وابتلع ما كان سيقوله، وأنبأني أنه سيشكوني إلى والدي!.

الأشـقياء لا يُكـذبون أخبـار بعضـهم، فسـرعان مـا جـاء المسيطر على حياة ولي العهد، جاء ساخطاً، غاضباً، وفوق كـلّ هذا وذاك لاعناً يوم ولادتي، يسبني في مقتٍ من بغضـاء ويشـد أذني في تقزز، كأني لست ولده، فأقرأ تباشير ابتسامة شـامتة مازلت أذكر وهج انتصارها في أجواء روحي المعذبة!.

ومن بادلتني مقام الرئاسة في المحل ترفض وجودي في فـترة الغـداء ووالـدي يختم على رأيهـا بالشـمع الأحمـر، فكـل شيء من حقه، المحل، الـبيت، الأولاد، النسـاء، وزهـرة الربيـع المقطوفة الكرة في يدها !.

في نهاية الأسبوع جئته فارغ اليدين لم أقبض أجراً، اكفهر وجهه وبلهجة سافرة عن كوامنه المادية الرديئة قال:

- تستحي عينه من عيني، على الأقل تشجيع، ناس مـا في ذوق !.

ضحكت نفسي في داخلها بصمتٍ، كادت ضـحكتي تصـدح بنذير شماتة وسخرية:

" ألم تتخـذ قـرارك بتعسـفٍ من جشـع الـذئب وطمعـه الراقص في داخلك أن أترك المدرسة، مـا قالتـه معلمـتي، أني ربمـا أكـون في يـوم من الأيـام ذا شـأن في مجـال الأدب إن تابعت تحصيلي الدراسي وقُيض لي الظرف المناسـب، أنت لم تسأل لتعرف أني كنت الأول في المدرسة والمتميز الوحيد في كتابة مواضيع التعبير.

قتلت المسـتقبل، قتلت فرحـة الغبطـة من النجـاح الـذي حققته يوم أحضرت تقدير نجاحي بـترتيبٍ ممتـاز، وبـوحيٍ من أناك المسيطرة تركتني أهدر الـوقت أمـام أفلامٍ "الفيـدو" من دون أن تسألني:

- هل انتهيت من واجباتك المدرسية ؟.

والأكثر أهمية من كل هذا أن أكون بين يديك مثـل عامـل تنظيفات مطيع، ومطيع جداً لسادته في قطاع النظافة، واليـوم آتيـك حـاملاً في يـدي نتيجـة الرسـوب، وحيـداً أحمـل نتيجـة

الرسوب، وحيداً أبكي، ما عاد في مدرسـة، من البدايـة عـارف ما مصيرك، تمديد الكهرباء تُدرّ ذهباً، تعلمها !.

والآن تسـألني مـا أعطـاك ؟... نـاس مـا في ذوق... اّ... تستحي عينه من عيني، لأفقد الرهبة من أنك أبي!.

ويأتي المساء محملاً بالصمت ويعود المتخاصمان إلى بيت الأحزان كأنهما غريبان لا يعرف أحدهما الآخر!.

ونحن نصعد الدرج فوجئنا بجارتنا أم نـوري، كـانت واقفـة تنتظرنا وبهدوءٍ قالت المرأة الغريبة :

- أبا غالب، الله يرضى عليك، أم غالب فوق أحضرتها أنـا، حرام الأولاد مالهم ذنب وأنت ابن ناس وبتفهم بالأصول.

هزَ رأسه وابتسم في وجهها بمكرٍ كي ينفي الشـكوك عن نفسه قائلاً:

- كله خير.

وداخل الـبيت لم يكن للخـير الـذي نرجـو أي وجـود، حين دخل لم يسألها عن أي شيء، ولم تتحرك هي من مكانهـا، كـلّ الذي فعلاه أن نام كـلّ واحـدٍ منهمـا منعـزلاً عن الآخـر ووجهـه عابسٌ!.

- 5 -

قبل صلاة الجمعة صبيحة اليوم التالي قال لأختي فريدة كأنه يريد أن يؤكد على سيطرته:

- قولي لها أن تطبخ " عدس بحامض ".

ومن كانت ممسوسة "بالليفة" والصابون، ومن كانت تجر ظلال قهرها وخيبة أملها في أن تكون سيدة منزل مرغوب بها، انهمكت في تنظيف البيت والغسيل المتراكم فتأخرت عن الطبخ.

كانت فرصة مواتية جاءته على قدميها ليثور في وجهها مثل فيل طاش عن قطيعه، لأستشعر من ذلك الزجاج المتناثر الذي تلقفته الأرض في زوايا المطبخ حزناً آسراً يتردد في أعماقي كلما هاجت في نفسي هذه الذكرى.

- ما الذي حصل؟ وأي ذنبٍ عظيمٍ اقترفته لينصب حقده على هذا الشكل وعلى مرأى من صغاره؟.

- أيعقل أن يكون ذلك السبب سبباً قاطعاً لثورةٍ لا تشبه إلا نفسها؟.

بين هول هذه اللحظات القاسيات كان أخي الصغير مازن يشهق في بكاءٍ راجفٍ من شدة الرعب.

حاولت اسكاته وايقاف رقص الذئب في دقات قلبي الذي صار مثل الرعد، ضغطت على أعصابي، أسأل نفسي:

- لماذا لم أضربه دفاعاً عن أمي ؟!.

أجل لماذا لم أضربه دفاعاً عن أمي، تلك التي زرعت في نفسي أنا الآخر انطواءً منعزلاً لمشاعري نحوها لكني إزاء ما سمعته حنّ قلبي، سمعتها تبكي بصوتٍ مسموعٍ، كانت هذه هي المرة الأولى التي نسمعها تبكي، خرج صوت بكائها حزيناً مشوباً برائحة الألم كانت تريدنا أن نقف في وجهه، أن نلتف حولها ونصرخ في وجهه ونطرده كما يطردها، لكننا لم نفعل !.

داخل هذا العراء من أمٍ هاجرةٍ لكوامن صغارها وأب لا مهابة في شخصه، لأن الرهبة من أفعاله وأقواله كانت هي الساكنة في ذاكرة الخلايا والأحاسيس والتي جعلتنا نقف كالمتفرجين كلّ في زاوية عدا مازن الذي جلس قرب أمه

يواصل بكاءه، كنا نعيش حياتنا!.

في تلك اللحظات الكئيبة هاجمتني أفكار شتى، وفي لحظات متقدة كنت في الشارع أضع نتف الزجاج المتكسر داخل الحاوية كأني أضع ميتاً مؤذياً!.

وأنا أصعد سلالم الدرج أطلّ وجهها من فتحة الباب واقتربت مني قائلةً:

- أهلاً غالب، ما بك؟

- أهلاً نوال ما في شيء.

(بصعوبة أزحت سكين الجرح العالقة في الحلق وأجبتها).

- كأنما سمعنا صوت تكسير، ماذا حصل؟.

- لاشيء، لا تشغلي بالك!.

في هذا الظرف القاسي تقدمت نحوي بجرأة، امتدت يدها إلى جبيني، أحست ببرودته ؛ أرادت أن تتكلم معي،كنتُ في حالةٍ لا تسمح لي بالتكلم معها، فأبعدت يدها، وقلت :

- أرجوك اتركيني يا نوال.

- ------------

- مع من تتكلمين؟، ادخلي.

جاء صوت أمها من الداخل ذابلاً، فخمنت أن تكون هي الأخرى في وقيعة مع زوجها تشبه وقيعة أمي!.

تركتها تدخل وانتظرت حتى أغلقت الباب، ثم تابعت الصعود ضغطت على جرس الباب، ظهر في وجهي مثل مارد أوداجه المنفوخة تنمُّ عن غضبٍ حاقدٍ لئيمٍ؛ رشقني بنظرة قادحة كأنها شرر حارق وتابع هبوطه إلى حيث لا أدري!.

في الهزيع الأخير من الليل، وكما تعودنا في الآونة الأخيرة أن يطول سهره خارج البيت، فتحت عينيّ، رأيت شبحاً لا أعرفه، وكيف أعرفه وقد دخل متطوحاً يتقاذفه فراغ الغرفة وقميصه على يده ولا شيء يستر صدره!، أنا لا أصدق الذي رأيته، ولا أصدق أيضاً أن الذي حصل كان بسبب "العدس بحامض"!.

أهو الكره؟ أمْ بسبب فقدان الحب ؟ أمْ بسبب جدتي التي تكره أمي ؟ وجدتي ووالدي يكرهان بيت جدي من أهل أمي!!

تركتُ الفراش وتسللتُ على مهلٍ إلى الشرفة، أردتُ أن أتنفسَ الهواء بعمقٍ، أن أتأملَ الليلَ والنجومَ، أن أخاطبَ المداخن شهودي الأوائل على ألمٍ مازال مغروساً في الجسد والذاكرة، نظرتُ إلى هوائيات التلفزة وأسلاكها اللاقطة،تساءلت:

" تُراها تملك القدرة على مخاطبتي أو تصوير أحزاني

لعرضها في مسلسل عالمي، أمْ تراها لا تأبه بشخصي فأنا مجرد هامشٍ في صفحةٍ مملوءةٍ بالكثير مما يشبه أحداث أحزاني" ؟!.

فتشت عن القمر، كان غائباً، في طرفه الآخر من الكرة الأرضية في المكان الذي تتموسق على لجين أشعته أحلام العاشقين، وأحلام الأطفال المترفين الذين لا ينتمون إلى عالم طفولتي، فأنا نقطة من مداد وجد تخفض جناح الذل من الرحمة!.

مُلت برأسي نحو الأسفل، كانت المسافة طويلة، كأني أول مرة أشاهد هذا الارتفاع، وهذه الحارة الهادئة تشاركني تأملاتي في انخفاضها والتوائها عند مفرق الشارع، ولأن الأمر كذلك فقد داهمني شعور غريب، لماذا لا أرمي بنفسي من هذا العلو؟ لعلّ النيام الهانئين بنومهم يستيقظون بمن فيهم والِدايّ البارّان بأولادهما، ليشاهدا دمي البارد وقد رسم على الأرض أسئلة في نهاية كلّ واحدٍ علامة من علامات التنقيط، التعجب، والاستفهام والفاصلة والنقطة غير موجودة فالمصير مازال مبهماً مجهولاً!.

فجأة تنبهت إلى سخرية الشيطان فصرخت من أعماق الصمت لا، لن أجعلكما تفرحان بموتي، ربما تبكيان بضعة أيام وربما لاوجود للدموع في حياتكما على ولدكما! لن أدعكما تنعمان بالهدوء، سأكون مثل حجارة من صوان تعيق هدوء فرحكما المتآكل من ثرثرة الحيزبون!.

أدرتُ ظهري نحو الداخل، رمقتُ الجميع، طار نومي في خضم هذه المضطربات وعيناي ترمقان أمي بنظرات ذات معنى عميق وعميق جداً، من دون أن أشعر نحوها بالعطف عليها رغم صفرة وجهها الباهت، والذي كان يثير الشفقة في نفس أي شخصٍ كان حين يشاهد وجه هذه المرأة!.

تكورتُ على الأريكة الخشبية والحزن يأكل ما بقي من اخضرار القلب وأنا متوتر الأعصاب، غاضبٌ!.

انشقتْ خيوط الفجر وانسلتْ ضفائر الشمس مخترقة زجاج النوافذ والشرفات لتقدم عزاءها إلى هذا البيت، كان الكل ما يزال يغط في نومه، تسللت بهدوءٍ على رؤوس أصابعي إلى مكان نومه، امتدت يدي إلى جيب بنطاله، أمسكت بقطعةٍ ورقيةٍ فئة المئة ليرة، وعلى مهلٍ أطلقت رجليّ إلى الشارع مثل سحلية لا تصدر صوتاً!.

كانت شوارع المدينة ومنعطفات حديقة ميسلون ملاذي الوحيد، كنت أغني، لمن أغني لا أعرف، هل كنت أغني لعبد الحليم أمْ لفريد أمْ لعبد الوهاب؟ اختلطت الكلمات بالألحان المهم كنتُ أغني لأرمم شقوق الذات المقهورة، ومن طبيعة التسكع أن تكون قد تعرفت على شلةٍ من فريقٍ هوايتهم العبث والتحرش بالنساء، كنتُ أعرفُ أين يوجدون، وحين

عـثرتُ على واحـدٍ منهم سـررتُ برؤيتـه، لن أكـون وحيـداً في ممارسة "الزعرنة"، وقتلاً للوقت الذي ما عاد تافها فقد سـألته أن نذهب إلى السينما!.

سألني بدهشة مقترنة بالرضا:

- سينما؟.

- لمَ لا، ألسنا مولعين بالحرية؟ أم أنك ترفض دعوتي ؟!.

بذل عمر كلّ جهده حتى لا يبدو ضعيفاً أمام قـدرتي على الدفع وجعلني في الـدخول أتقدمـه، فانتـابني إحسـاس بـالقوة والزهو مما أفعل!.

بعد الفيلم شعرت بالجوع فاشـتريت "سـندويش فلافـلٍ" واتفقنا أن نقضي بعض الوقت في الحديقة العامة، اخترنا مكاناً قصياً، كانت رائحة نهر قويق الكريهـة تسـبب الزكـام للعـابرين القلائل على عكس ما كنا نحس به، مياه ضحلة شـبه راكـدة لا تجدد في حياتها تحتوي على عـرق المدينـة وغبارهـا، رائحتـه لا يحتمل الأنف رداءتهـا ومـع هـذا كنـا نشـعر باللـذة ونحن نغـني مزيجاً من الألحان والكلمات التي باتت تخصنا وحدنا!!

حين سـادنا الملل قررنـا أن نـتزحلق زاحفين إلى شارع "العزيزية فالتلل"، فهناك وعلى الأرصفة المكتظـة بالنـاس بين رواح ومجيء تبدأ الحياة التي نبحث عنها ولا تبحث عنا، نخـترق صـفوف النسـاء كي نلمس يـد تلـك أو خصـر هـذه،أو، لم تكن تهمنـا الشـتائم واللعنـات الـتي كـانت النسـوة تـرد فيهـا على تحرشاتنا، فسمعنا غير مرهف!!.

حوالي التاسعة من مساء ذلك اليوم عدتُ إلى البيت بعـد أن اتفقت مع عمر على يومٍ جديدٍ في موعـدٍ قـريبٍ، وعنـدما دخلت البيت أبديت عـدم اكـتراثٍ ولا مبـالاةٍ من أسـئلتها الـتي بدت لي غير مستحبة.

صـعقتها لا مبـالاتي، وأوقـدت في حنجرتهـا سـياطاًمن الغضب، المرأة الأم تغضب وتثور، الليلة بدأت تسأل! قبل هذه الليالي لم تكن تسأل، قال كانت تحسبني في المحل !.

سـخرت من قوتهـا المفاجئـة ومحاسـبتها الـتي بـدت لي صـارمة على غـير عهـدي بهـا، فـأدرت ظهـري متجـاهلاً نهرهـا وجمـوح ثورتها، أمسـكت بي من كتفي وشـدتني بعنـفٍ، كـان الغضـب مشـتعلاً في عينيهـا الأم المشغولة بتلميـع "الطنـاجر" والصحون تغضب وتثور وتسـأل، ربمـا فقـدت عقلهـا من تـأثير الصدمة السابقة، أعادها غضبها إلى شدي بقوةٍ:

- أبوك، سألني عنك مرتين، أين كنت؟.

لا مبالياً سحبت يدي من يدها، وأدرت ظهري ثانيـة وقبـل أن أرد على سؤالها دار المفتـاح بقفـل البـاب وانفتح عن وجـه كأنه مارد قذفه إلينـا بسـاط الـريح لأقـع بين لكماتـه والضـرب بقدميه مثل كـرة يلعب بهـا هـداف واثـق من نفسـه، وقبـل أن تهدأ غلالة قباحة عقابه النافر التفت نحوها وقال:

- مسرورة أنت الآن؟ ابنك في الشوارع؟ حياة " مقرفة".

في هذه الليلة لم أشعر بـالألم من صـفعاته ولكماته، ولم أشعر بالراحة إلا حين سمعته يرمي بسوء تربيـتي على كاهلهـا وكم تمنيت أن تكون جدتي موجـودة تشـارك أبي اتهامـه لأمي في عدم وجود السؤال عن ولدها!.

ابتدأت أنمـو في وحشـة من انطـواء على التمـرد الحاقـد الــذي راحت تنمــو معـه ملامح الــذكورة الــتي جعلتــني أحس بالنشوة يوم شعرت بأني قد دخلت مرحلة المراهقة!

تصاهرت أحلام بدايات مراهقتي مـع صـراعات أبي بـأمي والأنغام الجديدة ترسـم كلماتهـا في ذاكـرتي الـتي مـا غـادرت عقلي :

- أمك جعلتـني أكـره اسـمك واسـم أخوتـك، دائمـاً تـذمر، وآهات وشكاوى كيف سأدبر أمري؟ لا أعرف؟

فأهمس سـراً بشـماتةٍ " معك حـق، أمي دائمـاً تنـقُ مثـل ضفدعة مجروحة!".

- 6 -

لم أظلمْ أمي، فنــق الجــريح من وجــود الألم يحتــاج إلى طبيبٍ ودواء أمي أن تشـكوني إلى أبي، وفي هـذا لابـدّ من أن يضربَني وهو يسبني قائلاً:

- ولا... ك، ابن الحرام ألن تعقل ؟

فأنكمش شاعراً بالذل أمام أخوتي كما في كل مرةٍ!.

لكنّ شكوى أمي هذه المرة لم تكن بسبب مشـكلة بيـني وبينها، بل كانت بسبب ما قالته الجارة أم نوري :

- والله يا أم غالب، هذا الكلام من ورائه خراب بيوت ودم!.

وكان على أمي أن تردّ عليها قائلة:

- صوني ابنتك!

- ابنتي مصونة، الغلط من ابنك ومن قلة تربيته!

- الولد مثل السيف... لكن البنت... !!.

وفي هـــذا زاد الكلام ولم ينقص وكادتـــا تتصـــايحان وتتشـابكان وتنتفان شـعرا رأسـيهما، لـولا تـدخل الحاجـة "أم رضا"، وكنت داخل البيت أسـمع صياح المـرأتين، وربمـا كـانت هذه هي المـرة الأولى الـتي جعلتـني أخـاف من أمي بعـد هـذا الشجار!!.

كان خـير مكـانٍ اختبـأ فيـه هـو الحمّـام، ورغم اختبـائي وخـوفي فلقـد ابتسـمت بخبثٍ وقلت في نفسـي : " مسـكينة أمي وجارتنا تفضحان بعضهما من دون أن تقـدرا على منعنـا "، وأكاد أضحك بصوتٍ عالٍ !.

تفاصيل أخرى وغير إضـافية حـدثت مـا عـدت قـادراًعلى ذكرها لأنها لاتهمني، والذي يهمني أن أذكره ذلك الحـدث الهـام في حياتي عندما حصلت على وظيفة مراسـل حـركي عليـه أن يقف عند باب المحل مثل عمود الكهرباء!.

وحتى لا يبقى المستور مستوراً على واحدٍ في مثل عمري فقد أرسلني لتبديل الجوارب النسائية، فالنسوة كانت تشكو من قصر الساق ولأن التاجر الذي أرسلني إليه كان مسافراً، وبما أني كنت أحمل علب الكرتون ولا أستطيع التلكؤ، فقد عدت إلى المحل بسرعةٍ ومن دون تأخر، حتى وقعت في رجفةٍ أوهنت مفاصلي، وأذعرت دقات قلبي وعقدت طلاقة لساني في صرخات مكتومة وبعينين براقتين التقطت أبرع الصور لأردد في داخلي:

- يعيش بابا، رجل ولا كل الرجال.

شعرتُ بمرارة التقيؤ في أعماقي، تمنيت في اللحظة تلك أن يشاهد الناس ما شاهدته، كانت زهرة الربيع المقطوفة تجلس في حضنه يقبلان بعضهما، فبعد الظهر تضعف حركة الناس، بل تكاد تعدم وخاصة يوم الأحد، وحين عدت بهذه السرعة ودخلت فجأة وجدني واقفاً أحدق مثل صقرٍ، فانتفض فزعاً بينما هي انخلع قلبها من رهبة نظراتي المحدجة عميقاً عميقاً، وكم تمنيت أن أفعل شيئاً، لكنني لم أفعل!.

الرجل مسح شاربيه وهي أدارت بظهرها إليّ، ولم يقل شيئاً سوى ذلك السؤال، وكان الذي حصل كان عبارة عن سحابة هامشية:

- هل بدلت الجوارب؟.

بنزقٍ غاضبٍ وضعت العلب على الطاولة وخرجت إلى الرصيف كانت قطتي بانتظاري ولحظة رأتني ركضت نحوي وهي تموء،اقتربت مني تهز ذيلها، فضربتها برجلي ففرت إلى الرصيف المقابل وهي تصرخ بصوتها المعروف كأنها تستهجن من فعلتي وأنا كالغريب واقفٌ أسأل: ابن من أنا؟.

"كاترين" خرجت غير آبهة بنظراتي التي كان الشرر يتطاير منها، مرت من أمامي نكاية بي، ويداي كانتا تريدان أن تقبضا على عنقها، وحين صرخ غالب عرفت أنه سيطلب مني السكوت!.

حاول أن يكون منهمكاً في عدّ الأوراق النقدية، وقد بدا لي أنه غير مضطربٍ، وشيء غامض في دماغي كان يوزع شظاياه على خلايا جسدي لأشعر في هذه اللحظة بالذات أني أريد البكاء!.

كنت متعباً وحين نظرت في وجهه أحسست كأنني أول مرة أرى وجهه، وجه بارد كالحديد، أمسك بذقني، رفع وجهي نحو وجهه وبجدية قال:

- أنت كبرت، ولابدّ أن تفهم، سنكون أنا وأنت بعد هذا اليوم أصدقاءً ما رأيك؟!.

غشاوة مخاطية لزجة نزلت على عينيّ، فوجئت بطلبه، إنها المرة الأولى التي يعاملني فيها على أني أصبحت شخصاً كبيراً أفهم، صوته غير الأليف يمشي في دمي، فتعمدت تركه حائراً وخرجت بعد أن ضربت باب المحل بقدمي.

الجسدُ ضئيلٌ ونحيلٌ، العين ترى الناس بشكل معوجٍ، سقط العالم أمام روحي فبدأت أسرح مع رائحة النهر، وحين رأيت رجلاً يلاعب طفله سولت نفسي لي " سأعترض طريق ذلك الرجل، سأعكر فرح طفله، إنهما يلعبان بالكرة، يتسابقان، يتضاحكان، سأنزل من الجسر إلى النهر، سأشرب من مائه، هذا القلب يبحث عن الموت " وفجأة تذكرتها تذكرت ما قالت "أنا بانتظارك"، فقررت العودة وأنا متصدع، مأكول، حتى قهقهت أعماقي:

- سأفعل مع نوال شيئاً مهماً!.

- 7 -

هاأنذا الآن أسترجع في ذاكرتي قصة حياته كما حكاها لي ربما كي أشفق على أبوته الـتي أشـعرتني آنـذاك إني لا أنتمي إليها، وربما كي أحسّ بشقائه وكدّه وحرمانه.

كان يتسلق حافلة النقل الداخلي وهي تسير، كي لا يـدفع ثمن التذكرة معرضاً نفسه للخطر، وعنـد موقـف الـنزول كـان يقذف بنفسـه على الرصـيف ويجـري بسـرعة الـريح إلى بـاب "جنين" للعمل في محطة لبيع المحروقات، ويسعى بكلّ جهـده في أن يدخر البخشيش من أجور الضـخ، وفي هـذا كـان يجمـع القرش فوق القرش.

لسيرتك وقع في قلبي مثل غيمة لا تمطـر أبداً، الطفولـة تحترق في سعيك الدؤوب على جمع المال بائعاً للجوارب على أرصفة التلل، ثم دَهان عند معلم أرمـني، فعامـل موسـمي في محالج القطن، أستمع إلى التفاصـيل بعـذابٍ يأكـل نبض قلـبي والضحكة السافرة عن مجونها في هذه القصة، الضـحكة الـتي يسخر من سماعها رجال الذاكرة التي لا تعرف رائحة النهر في هذه المدينة أن في قصة ولادتك ما يشبه قصة ولادتي!!.

ســمعت أمي تحكي لجارتهــا أن وحامهــا لم يكن على الحامض أو الحلو من الطعام، كـانت ورغم بسـاطتها في الفهم قــد أغــرمت على متابعــة مسلسـل الجــذور "كونتـا كونـتي" المسلســل الــذي ظهــر في أواخــر الســبعينات، أي في عــام 1979، لهذا كـانت سـمرتي غامقـة تميـل إلى الصـفرة، وأنفي كبير يشبه إلى حدّ ما أنـف جـدتي أم أبي، وجـدتي أم أبي كمـا سـمعتها تحكي لجارتنـا أم نـوري بعـد طلاق أمي أنهـا حـاولت الإجهاض غـير مـرة خشـية من أن يعيـدها زوجهـا إليـه إذا كـان المولود ذكراً!.

في زاوية ما وجد نفسـه مـع أمـه في مرتـع من الـذل لم يختره هو، بل اختارته هي، يـوم رفضـت العـودة وأصـرت على الطلاق!

وجد نفسه مع أمـه في بيتٍ غـير بيت أبيـه، وعنـدما صـار الصبي في مثل عمري رفضته زوجة خاله، رفضته قائلة :

- الولد كبر، وأنا أخاف على البنات، تدبر أمره وأختك !!

وفي هذا تحدث أبي عن كلّ التفاصيل، تحدث قائلاً:

" لأن أمي رفضت الخروج تقرفص خالي على الأرض وراح يفعل كما تفعل النائحات بإذلالٍ لا يمطر إلا الخوف من التمادي بالنواح حينئذٍ قررنا الرحيل عنهم، فخرجنا، ورحنا نبحث عن سكن في غير مكان فزوجته وبيته وأولاده ما عادوا يرغبون بوجودي وأمي !

خرجنا نبحث عن مأوى بين وحل الأمطار والبرك الآسنة التي كانت منتشرة في الحواري والأزقة، كنا نمشي بهدوءٍ داخل فراغ الهواء وصمت الضباب بذلٍ لا يشبه سوى صورة الموت المخيف ونحن نسأل عن بيتٍ يحتوينا والأشياء التافهة التي كنا نحملها، فلم نجد غير سكونٍ لزجٍ ينبعث من أزقة الحارات الضيقة، و"بقجة" حاجات أمي وكيس الورق الكبير يخشخش مثل أوراقٍ هشةٍ مصفرةٍ يبست في فصل الخريف، صوتها الآن ينداح في قلبي وعقلي كما الأنين!.

- أهلاً بالست أم فريد.

مصادفة التقت بنا أم طوني، كما كانت تلتقي بأمي غير مرة في حمام "قسطل الحرامي"، أخذتنا معها إلى سكنها في "براكات الأرمن" قرب "الخان الحزين"، وكان من الصعب علينا أن نجد غرفة خالية تحتوينا وهذه الأشياء التافهة، لولا وجود هذه الصديقة التي تدبرت الأمر بعد أن رثت على حالتنا المزرية، لأنها لم تنس هجرتها وحيدة من حربٍ" الطوشة" بعد أن فقدت زوجها وولديها والتي ما نسيتها أبداً وكيف تنساها وقد حفرت الحزن في أخاديد الذاكرة؟!.

في تلك الغرفة نظرتُ بإمعان إلى السقف الخشبي بأعمدته السوداء، قرأتُ من خيوط العنكبوت المعششة في الزوايا عن قصة هجرٍ وهجرة.

حين دخلتُ مع أمي إلى غرفة المرأة، المرأة التي لم تصرعها حرب " الطوشة "، شرعتُ أمعن النظر بالغرفة، كان كلّ شيء فيها ينمُ عن فن امرأة تجيد الشغل بالسنارة وبالمخرز، وصورة العذراء والسيد المسيح على الرف تُزينها ثلاث شمعاتٍ على ثلاث شمعداناتٍ برونزية، حينذاك استقر بنا الحال في هذا المكان، بعد يومين تدبرت لي أم طوني عملاً عند معلم دهان وقالت لي وقتئذٍ:

- صنعة باليد أمان من الفقر.

حينئذٍ بدأت الصراع مع نفسي ومع الزمن في إجهاد نفسي بالعمل وفي داخلي صقيعٌ من الذل يجثمُ على روحي،أحاول كلما تقدمت خطوة أن أتدثر بالدفء الذي حُرِمت منه، أريد أن أغطيه لأتغلب على كلّ صنوف القهر والحرمان الذي ذقته في بيت خالي!".

من هذه القصة، قصة الطرد قبل منتصف الليل، استشرى الحقد في داخلك، كان ينمو في قلبك ويكبر، ومع تطامن هذه الجراح التي ما عرفت كيف تندمل، وكيف تندملُ ومن جعلتك تنشأ على أحقاد عالمها لا تفارقها، ولا تفارقك، أودعت عواطف روحك في صندوقٍ من التحجر تجاه والدك، فتنكرت من اسمه ومن وجود اسمك حتى في دفتر العائلة، ألمْ تزرع في نفسك الغلّ نحوه عندما كانت تقول لك ولمن كان يجالسها أنه رفض أن يدفع لك نفقة، أو أية مصاريف تتعلق برضاعتك أو بحضانة طفولتك!.

تكفلتْ هي بكل مصاريفك من شغلها على ماكينة الخياطة حتى أصبحت قادراً على العمل، انتبه، في السن ذاتها تطالبني أن أتعلم حرفة أو صنعة، أنت من أجل لقمة العيش تركت المدرسة ورحت تعمل أجيراً عند الناس، وأنا لأجل نقمتك على من لم يحتويك وأمك، ولقمة ولدك من صلبك، كنت تقول أنك تخسر!

أيها الرجل- الطفل- صاحب عقدة ألا ترى معي لأنك عشت محروماً من إنسانيتك في طفولتك تنتقم مني لاشعورياً قاتلاً كلّ أماني الطفولة بأحلامها البكر!.

أنا أذكر هذا الكلام، وأذكر أيضاً أنك كنت تريد أن أقذف بنفسي للعمل في مهنة، حرفة، صنعة، كي تستعين بأجري على مصروف البيت، لم يكن يهمك ما سأكون، وبماذا أحلم، وما هو هدفي ؟؟ كان هدفك أن يشتغل غالب، وتحققت رغبتك! فاشتغل غالب في غير مهنة أو حرفة، أو صنعة، اشتغل غالب في تعاطي الحشيش والنوم مع السكارى والهاربين من العدالة، تعالَ انظر إليّ الآن، انظر إلى ذاكرتي، حاول أن توقف فتيل التوقد الأحمر، حاول أن تضبط أعصابك وأنت تسمع باسم منْ تعرفتُ عليه داخل السجن!!

فأنا لم أستطع أن أخفي تأثري من التحول المحتوم الذي آلت إليه نفسي وأنا أراه يدخل " القاووش "، راودني شعور غريب! ولكن لماذا ضجت أصوات السجناء ؟ يا لضجيج هذا المكان!، مرغماً أقطع عزف القلم والروح والعقل وأنظر في وجهه، أرى الملامح المتصاهرة، المأخوذة من اللحم الحي، هذه الملامح شدتني لاشعورياً إلى مناصرته بدافع من اغتباطٍ خفيٍ، لا تدري من أين تدفأت به نفسك ؟ ولمَ ؟!.

في تلك اللحظات، لحظات الإدراك الخفي لإحساس ضامر بدأ يشق رحم الأرض التي هي النفس، ساقتني خطواتي نحو الرجل الذي كنت أدعوه بعمي، وسألته :

- تُرى ما تهمة هذا السجين الجديد؟.

وأبو حسن الذي كان مستاءً من عزلتي عنه، حدق في وجهي بنظرات حيرى، وبتهكمٍ ردّ عليّ:

- الحمد لله، جاء من حرّك صيام لسانك عن الكلام!.

أطـرقت خجلاً، فقبـل مجيئـه كنت مضـطهداً من هـؤلاء الغربان، فتساءلت داخل سكون روحي "هل سيفعل بـه هـؤلاء المسـجونون مثلمـا فعلـوا بي يـوم دخلت " القـاووش " وقبـل مجيء أبي حسن؟ ".

أسـئلة كثـيرة متسـارعة متشـابكة متوجسـة توافـدت ثم توقفت فصوت أبي حسن ينتشلني من قاعة حواراتي الصـامتة قائلاً:

- تعالَ، اجلس، " طرنيب ولا تركس".

لم أكن راغبـاً في اللعب، لكنـني أمـام مبسـمه الـودود، جلســت ومــا إن فتح الــورق حــتى تهـافت نحونــا من أكــره مجالسـتهم، وأنفـر من وقاحـة أحـاديثهم ونكـاتهم التافهـة ذات الكلمات المترجرجة البذيئة.

من بداية اللعب تـذمر أبـو حسـن وبـدت غضـبته واضـحة وعقــدة حاجبيــه متمترســة، فوجــدت أنــه من الأجــدى لي أن أنسحب إلى سريري وأنا غير راضٍ عن خسارتنا وأصـواتهم تنم ّعن كوامنهم.

من مكــاني حــاولت أن اختلس النظر إلى وجــه الزائــر الجديد وهو مستلق على سريره بشرودٍ حزينٍ!.

دققت النظر فيه وبسهوه، أريد أن أسأله بعض أسئلة ربما لا تشبه الأسئلة الـتي واجهـني بهـا هـؤلاء السـجناء يـوم دخلت "القاووش " ولا حتى يوم كنتُ في دار الأحداث.

- لماذا تملكتني الرغبة في البكاء ؟، ولماذا تملكتني الرغبة في الــرقص؟ ولمــاذا تملكتــني الرغبــة في الصــياح؟ ولمــاذا تملكتني الرغبة في نومٍ مضـطربٍ قلـقٍ بعـد أن تـركت اللعب وتمددت على سريري ؟! فهذا لأنني لم أجد الجواب!!.

في الصـباح اسـتيقظنا على أصـوات جلبـة غـير عاديـة تساءلت والنعاس يطبق على أجفاني ماذا يجري؟ الشرطة في حالة استنفار الكتائب في تحرك، صـفارات الإنـذار تصـدح، كـل الزنزانـات يطوقهـا الضـباط والحـرس، الزمـان يتوقـف، يتهيـأ الجميع إلى معرفـة الحـدث الجديـد الهـام، الحـدث الـذي بلبـل أرجاء السجن كافة!

تجمعنا حول قضبان النافذة الوحيدة، وبين تجمـع الرجـال وجدت نفسي ضئيلاً لا يحتمل رائحة عـرقهم التي تشـبه رائحـة النهر والتي مازالت مختزنة في ذاكـرة الأنـف، وحين سـمعتهم يقولون يبدو أن أحد السـجناء حـاول الانتحـار، اقـتربت من أبي حسن وسألته:

- هـل هـو الشـخص نفسـه الـذي حـاول الانتحـار في المطعم ؟.

بَسَمَ في وجهي بسـمة خفيفـة ثم أحـنى رأسـه من أذني

وبهمسٍ قال:

- لا تستعجل، يا غالب، لا تستعجل.

عدتُ إلى مكاني، التقتْ عيناي في عينيه فقرأتُ زفـرات الأسى في وجهه، وحـتى لا أفقـد مـا أحسسـت بـه من ارتيـاحٍ اقتربت منه وسألته:

- كيف حالك اليوم؟

- بخيرٍ.

انساب صوته في قلبي مثـل خريـر جـدول، وداخـل خلايـا جسدي نبضَ الـدم في عـروقي دافئاً، شـعرت بدفئـه فصـوته هادئ، نبرته لطيفة إحساس غامض شدني إلى الجلـوس قربـه أرغب في محاورته، مصادقة أشجانه، وأنا في مضطرب سحيق المدى مع ذكرياتي!.

كان الهدوء قـد عمّ المكـان بعـد هـذا الصـخب والضـجيج ورغم رداءة الزمن وتبـاطؤه في معرفـة أسـباب البلبلـة جاءنـا الخبر البارد الحار الرجل لم تحتمـل أعصـابه أن يسـتقر حكمـه على المؤبد !.

وحين تمكن من الحصول على شفرة حلاقـة راح يضـرب بها وجهه ويديـه في لحظـة جنـون وهـو يصـرخ مهـدداً كـلّ من يقترب منه، حتى فقد وعيه بعد أن غـاص في بركـة من الـدماء وحين أغميّ على الرجـل نقلـوه بسـرعة إلى المشـفى لعلاجه والذي نقل الخبر قال ربما لا يعود إلى السجن بل إلى المقبرة، فالرجل نزف كثيراً!!.

لم تكن الـدعوة بـاردة فالرجـل بمقامـه الحصـيف قـال وبصوت جهوري يميل إلى الأبوة:

- تعالَ، صاهرنا بالطعام.

انشرح صدري من دعـوة أبي حسـن للسـجين،وانفـرجت قسمات وجهي عن ابتسامة غبطة، سرّتني هذه اللفتة الكريمة سروراً عظيماً فمسكته من يده وقلت:

- هيا، قمْ، انهضْ.

كالعـادة بعـد الفطـور جلسـنا نفتش عن القمـل، انـدهش الرجل مما نفعل!. ثم كمن يبتلـع مقصـاً أجـاب عن سـؤال أبي حسن ببحة من حزن في أسى:

- دهستُ طفلاً!.

تركت القميص من يدي وسألته:

- كيف؟.

أجاب وهو يبلع الغصة :

- المسكين كان يحمل كيساً من الخـبز، الإشـارة الضـوئية

كانت للسيارات وكنت مسرعاً ولم أتمكن من ضبط "الفرامل" وقبل أن تنطفئ الإشارة الخضراء كان مثـل شـبح ركض حـول حتفه!

- لا حول ولا قوة إلا بالله. قال: أبو حسن.

حينئـذٍ مفـاتيح الأنـوار المشـتعلة انطفـأت، فقـدت حالـة التــوازن الــتي اتكــأت على بعضٍ من اسـتقرارها في نفسـي فأتمنى وبلا جهر بالأسباب أن أكونَ أنا ذلـك الطفـل المأسـوف على حياته اللحظـة تلـك، وفي قهـر من صـمت موجـع " باللـه عليك أعدْ ما قلت، تابع رصد دقـائق اللحظـة الواصـفة لـدقائق لحظاتي السابقة يوم نسيت "الفراطة" على رصيف الشارع.

غني على أحزاني أغنية الخبز والـدم، ودعـني أرقص على ألحانها رقصة الموت، أخاف من هذه الذكرى، قسوتها ما تـزال عالقة في شجر الروح، أشعر بالانكسـار، بـالفجوة تضـعني في قلب المأسـاة، بـالألم ينضـح بـالوجع، أحس حالـة من الصـراخ تعتريني، سأصرخ الآن سأبكي، سأفعل فعلة المحكوم بالإعدام ".

وأنا في صراع على قسوة مـا كـان ومـا سـيكون، أسـمع صوت "الباحاتي" يشق صمت زنزانـةٍ مظلمـةٍ لا شـمسٍ فيهـا، ورجل الشهامة يُغلق برتاج المروءة مقاومة أحزاني قائلاً:

- هيـا بلا كسـل، هـات الغسـيل، لا أريـد أن أتـأخر على الحرمة.

لست أدري لماذا في اللحظة تلك شـعرت بالرعشـة تلـو الرعشـة تخـون قـوتي، فتمـددت على الحصـير قـرب السـرير أتأمل الضوء المنسرب من فتحة باب " القاووش " تأملت كـل الأشياء، الوجوه تُمطـر الشـقاء إلا وجهـه، أريـد أن أبـدو أمامـه رجلاً عاقلاً لا شاباً ضعيفاً، أريـد أن أتغلب على الأزمـة الداخليـة التي انفجرت في داخلي كي تعيدني إلى الدائرة السوداء ذاتها، دائرة الخبز وقسوة العقوبة، فاقتربت منه وبجرأة قلت:

- لم نتعرفْ على اسمك بعد؟.

أطفـأ سـيكارته وبغصـص من دمـعٍ محتجـزٍ في العيـنين الذابلتين قال :

- وجيه عبد الوكيل الدليل.

لا شـعورياً قفـزت عن مكـاني، وعقلي يـردد وجيـه عبـد الوكيل الدليل، كأني سمعت بهذا الاسم من والدي، وجيـه عبـد الوكيل الدليل إذن أبعدوني عن العقرب، أبعدوني عن الحربـاء، وبانفعالٍ لا إرادي صرخت:

- أعدْ الاسم الذي ذكرت

- وجيه عبد الوكيل الدليل، هل في الاسم خطأ ما ؟

لم أسمع ما قاله السجين، دختُ مثل سكران أفقدته الضربة القاضية حالة التوازن، غبت داخل آبار من خمر معتق وقديم، ركضت الأسماء من حولي، نسب أبي، أخوة أبي، أصبحت أترنح كمن بدأ يفقد وعيه فشعر بتهالكي، مسك يدي وهزني ربما كي أصحو وكرر :

- هل هناك خطأ ما ؟ أفزعتني، ما بك؟.

انفجرتُ ضاحكاً، ضحكتي تفرقع بشيء من الهستيريا وأنا أصرخ:

- وجيه عبد الوكيل الدليل، وجيه، أخو أبي، أو تشابه أسماء !!

الرجل غضب وتجهم وجهه فصرخ في وجهي:

- عن ماذا تتحدث ؟ ومن أخو، من؟ نعم اسمي وجيه عبد الوكيل الدليل قل ما الأمر؟ هل هذا وقت التنكيت ؟

حين سمع السجناء بكلام السجين الجديد وهو يصرخ قل ما الأمر هل هذا هو وقت التنكيت وهو ممسك بيدي، اندهشوا مما يحدث، ومن غريب صخب انفعالي وصوتي الذي بدا مثل جأر الثور!.

الرجال معهم حق! ما يقال الساعة تلك قد يبدو قصة خرافية من أيام الأساطير في تشابه الأسماء، بل في حقيقة وجود النسب، هل أناقش هؤلاء؟ أم واحداً من أبطال "الحدوتة" الحكائية والتي أذهلتني سيرتها على لسان شمطاء دحرت أواصر القربى و أبعدتهم عنا في مهزلة من تهويمٍ فجٍ لا يغادر ذاكرة عقلي.

دعوني أضج بضحكي المجنون، دعوني أقرأ عليكم سيرة والدي بل سيرة جدتي، لا تستغربوا مما ستسمعون، أنا عاقل ودقيق فيما سأعرضه عليكم، حكاية من حرضت أمي على الحرد الأخير ابتدأت تفاصيلها تظهر، تعلن عن حقيقة آن الأوان لظهورها، نحن من أسرة مولودة من بطون العجائب والأسرار، ابتعدوا، لا أريد الشماتة، أريد الإصغاء، أصيخوا السمع، انتبهوا إلى ما ستسمعون، لا أريد تزويراً، ولا أريد سهواً، "ابت...عدوا"، وحاولت أن أدور حول نفسي حاولت أن أقف بلا خلل يضبط توازني، لكنني وقعت على الأرض فلقد أغمي عليّ، وحين فتحت عينيّ، وجدت جسدي الواهن على السرير يبلله العرق، بعض الوجوه كانت قربي، فنهضت بعد أن هدأت ثورة جموح جنوني لأجد أن في وجه السجين الجديد ملامح الدهشة والذهول فالآخر صدمه واقعنا، واقع لقائنا في زنزانة، وأن العم أبو حسن حملني من الأرض لحظة دخل ووجدني في حالة لا تشبه إلا نفسها!.

الموجوعة أمي والتي كانت ممسوسة بالليفة والصابون كانت تريد صلاح أمره مع أهله من أبيه، ليكون لأولادها أتراب وأهل يزوروننا فنزورهم، يصاهروننا فنصاهرهم، لكن أسوار

المرأة التي حكمت ابنها، قلب الحاقدة التي استشرى حقدها في قلبه جعلته رافضاً أن يكون بينه وبينهم أي اتصال!.

- انظر يا أبا غالب، أصبحنا أنا وعمي (أخوك من أبيك) أسطورة زمن لا يصدق فيه مثل هذا النوع من الواقع!!.

المتهم الحقيقي خارج أسوار الغرف ذات الجدران الحديدية، والمضطهد الذي أدمن على رؤية الشجار والحرد والتسكع في الشوارع والمطرود بلا هوية من أب لا يعترف بوجوده، والذي وجد نفسه من معاشرة الكبار الهاربين من العدالة داخل هذه القضبان محكوم عليه مع محكومين تعددت جناياتهم!.

- أيها القاضي الجليل، كم عاماً ستحكم عليّ؟.

عدْ معي إلى منزلنا، تذكر حادثة " العدس بحامض "، ارسم بدقة تفاصيل ذلك الرجل الذي تكرر خروجه وسهره حتى وجه الفجر، ارسم ما اعترانا، لا تعجب ولا تنكر الحقيقة، الحقيقة التي تشبه اللعنة على شارب الخمر وبائعها وشاريها وناظرها ونحن كنا ننظر إلى الأرقام نتابع الدواليب بدقة، حتى صرنا نحلم برؤية الأرقام في المنام كما كان يقول هو عن أحلامه، ونحن كنا نتراهن لأننا كنا نحلم بالأرقام مثله،إذن كنا نلعب القمار معه، لم يكن لعباً بالورق فوق طاولة مع شلة من المقامرين، كان لعباً من نموذجٍ خاصٍ، نموذج ابتكره سمسار شركاؤه ملوك "البزنس ".

في المقهى وحيث كان يجلس زعيم ميسر السرعة، زعيم الابتكار الجديد، والذي كان يمتاز بخصوصية الساسة المروجين، خمن، أو اختر، أو حتى احلم!.

مساء كل ثلاثاء كنا كالمأجورين أمام الشاشة بعد أن تقمصنا شخوص الكهنة والعرافين، نتصايح، نصرخ بدعاء فيه رجاء الصغار،أو حتى الكبار إلى الله، "يا رب... آ... على هذا الرقم " والجدة، والتي كانت عيناها مثل عيني ضبٍ واقفٍ على صخرة جاثية يرتقب فريسته، كانت تنهض من مكانها حين تقف الدواليب الأخيرة على واحدٍ من أرقام الرهان لتحدق النظر في الرقم على الشاشة وقد أحنت ظهرها وفتحت عينيها !.

وهذه الممسوسة بالتنظيف أمي والتي كانت لا تعرف عن تفاصيل هذه اللعبة ما قد بدأنا نعرفه نحن الصغار، فذلك لأنها كانت على ثقة تامة من أن آراءها معتقلة، ولأنها كانت لا تخرج من مطبخها حتى ينام الجميع، وأنا بحكم يقظتي الذهنية وبحكم فراستي النشطة كنت قد حفظتها عن ظهر قلب وحفظت اسمها رغم صعلكة حروفها، من حديثه مع أبي "ميشيل" عرفت طريقة الرهان، والذي جعلني أنا الآخر أفكر باللعب بها وأحلم بشراء سيارة حديثة، وبالجلوس في محل أملكه في شارع "العزيزية" لا حي "الميدان"، حتى حلمت أيضاً بأن التي

ستعمل عندي هي زنبقة الحي(كاترين) فقد تفيدني في كسب الزبائن، هكذا أصبحت أفكر وأحلم !.

ما تحصل عليه سبعة أضعاف المبلغ الذي ُتقامر عليه عن طريق سمسار اليانصيب، فقط قامر باختيارك رقمين تدفع عليهما المبلغ الذي يبدأ بخمس وعشرين ليرة أ و ضعفه أو الضعفين وهكذا، إذن المسألة سهلة ولا تحتاج إلى تعقيدٍ !.

وحين فكر أن يراهن على عددٍ كبير من الأرقام بعد أن وضع في يد السمسار كلّ رأسماله النقدي، والذي ادخره لشراء بضاعة في موسم العيد، أصابته الضربة القاضية، الضربة التي تفحمت عليها ملامحه فانزوى كئيباً يلعن حظه، ولولا العيب لفعل مثلما تفعل بعض النساء في أحزانها، كانت الضربة الأخيرة مدمرة، عرته من كل ما يملك فأصبح على الحديد سوى من بعض أشياء ظلت على رفوف المحل والتي لا تعطي غير ثمن الخبز!.

في هذه الفترة من هذه المرحلة، مرحلة الخسارة والانزواء، جاءته تمشي الهوينى، وجدت هذه الظروف فرصة مواتية، وحين رآها قادمة نحو المحل أسرع نحوها، مسكها من يدها وسألها بلهفة:

- خير يا أمي، ماالذي أتى بك إلى هنا ؟ لمَ لمْ تذهبي إلى البيت؟.

أجابت مثل شرطي سجن غاضب:

- لا وألف نبي، يكفينا ما حصل، صرنا حكاية في لسان الناس!.

وكأنه كان يفكر كثيراً في مصيرنا قال :

- والله ما كاسر ظهري غير الأولاد.

أجابته بسرعة:

- يعني وجودها مثل عدمه، دور على شبابك، مصلحتك أهم، بنت خالك صارت أرملة، وزوجها خلّف لها دارين وسيارة، أنت أحق من الغريب!!.

كنت واقفاً قرب الباب أسمع الحديث وأراقب، ولن أنسى كيف برقت عينا والدي، وكيف شعرتُ أن لحم جسدي قد تخشب، وكيف تخيلتُ نفسي مارداً استطالت أظافره وقبض على عنقها وراح ينهشه كما تفعل النسور بالطريدة!!

ما تقولين أيتها العجوز المخربة " أنت أحق من الغريب، بنت خالك أصبحت أرملة، أنت أحق من الغريب "!.

هل اندفنت مودّة الجسد؟ وخلفت جداراً مخيفاً للانفصال وبجراءة ووقاحة حين رأيته وكاترين، يسرني بعواطفه قائلاً جملته الملعونة "أنا وأمك تآخينا "!!.

يتركني وحيداً أعيد في ذاكرتي ما سمعت، ويمضي معها إلى بيت بنت خاله، وكنت ما أزال أفكر في البحث عن عراف ليشرح لي ما معنى كلمة التآخي بين زوجين منذ أن تفوه بهذه الجملة ؟ فأنا لمْ أفهم شيئاً! لأني كنت مراهقاً، ومنغمساً في الحواري شبه الخالية من أفواج الخلائق البشرية، رائحة النهر لا تغادر ذاكرتي فأغني، وأمي تطلق صياحها كالدجاجة من الديك الغريب الذي بدا لها متوحشاً، حين حلق ذقنه وسكب ماء صابون الحلاقة على الأرض، ودخل يلبس ملابسه وهو يصفر ويدندن !.

الشيطان يضحك في سراديبه والرجل يغني، تصاهر وإبليس واكتملت نصف الحكاية، والنصف الآخر المتعلق بالمرأة، المرأة الصامتة الممسوسة بالليفة والصابون والتي تحزمت أخيراً بالجرأة بعد أن طاش صوابها والتي صرخت بملء وجعها: - لمَ فعلت هذا؟، لم يعد صبرها كما كان، وبأعصاب باردةٍ يستدير نحوها، وكأنه لم يفعل شيئاً يحدق في وجهها مستغرباً من سؤالها، وبنظرة تعني الكثير من اللامبالاة يصفر ويدندن مرة أخرى، فتزعق:

- طلقني، ما عدت أحتملك!.

الرجل الذي يخشى الله، بَسَمَ على دحرجة مشاعرها المسحوقة بَسَمَ بعد أن ترجل عن مروءة الرجال، وخرج إلى زمنه الذي بدأ، تاركاً خلف ظهره وجهاً ذابلاً، وأطفالاً باهتين!!

أرهقت عينيّ وعقلي وقلبي وأنا أقرأ تفاصيل الحرد كما في كلّ مرةٍ، صورتها وهي تطوي "بقجة" حاجاتها، وقد بدت مرهقة وهي تحملها، لتقول ما لم تقله من قبل حين تطلق رصاص الحقد :

- الله ينتقم منك يا بن الحرام!.

- 8 -

أخيراً تركتِ البيت أمي، وبقيت وحدي مع أخوتي، هل كان قدرنا أن نشاهد الشجار كلّ يوم جمعة ؟! على كلّ حال لم أكترث لخروجها ولم أشعر بالحزن والأسف على رحيلها، بدا إحساسي غريباً، يبدو أني ما عدت أفكر سوى بنفسي!

شممت رائحة كرائحة النهر حطت على جدران بيتنا فخرجت إلى الشرفة، وقفت بضع دقائق ثم تسلقت على السطح، ألقيت نظرة خاطفة على كلّ المباني والسطوح، ثم أسندت بظهري على حائط مدخنة كانت في يوم مضى صديقة أنسٍ، وجلست مقرفصاً تُمطرني أسئلة حارقة الصدى !.

في هذا الزمن من ذلك اليوم شعرت بحاجة ماسة إلى البكاء ربما على نفسي، الدموع المحتبسة أسبغت على حزني ضيقاً وأرهقتني أهو ثمن الصمت على الصداقة التي تعاهدنا عليها ؟.

أمْ هو من ذلك الاعتراف المائع الذي سقط في نفسي راكداً "أنا وأمك تاخينا، ما عادت تنفعني"!.

حين تذكرت هذه الجملة قرعت في داخلي طبول الذعر من المجهول القادم، أنا أحقد على أمي لا أحبها، لأنها خلقت في نفسي نحوها صمت الظلام من اليوم الذي أفشت فيه بسر علاقتي مع نوال وتسببت بأذية مشاعر جارتنا يوم طردتها!.

أغمضت عينيّ، لا أريد الضوء، العالم صغير وجاف وممتقع الألوان، الكرة الأرضية تطبق على نفسها، تمسح سمات البشر، أقفز عن مكاني فزعاً مثل فزاعة خوفتها الريح فسقطت، لحظة ألقت جرادة كبيرة بنفسها على جيب قميصي فوق صدري، في اللحظة تلك شعرت بالخوف فقلت :

- يا إلهي ماذا أفعل؟!.

تمالكت أعصابي وتملكت رباطة جأشي وبحركةٍ ما من عصا صغيرة كانت بقربي حملتها، أزحتها بها، فتنحت عن الجيب، و طارت تاركة خلفها قلباً يخفق بشدةٍ.

فجأة تحللتُ من صمت الظلام، استشعرتُ حرية من

خروج أمي أصبح الجو ملكي، جو اللقاءات السرية، سأفعل ما أريد مع نوال سأغفو وأستيقظ على لذيذ حبي، سأدفن شقاء نفسي على صدرها، لن أخاف من شكاوي أمي إلى أبي وتشويشها على جارتنا، ولن تكون هناك سطوة من أبي على سلوكي مع من أحب وأمني النفس بلقائها أصبحنا أنا وهو أحراراً، ونحن أصدقاء، ألم نتفق ؟!، يا سلام ما أجمل أن تكون حراً، لست أدري لماذا راودني هذا الشعور ؟!.

حين نزلت أزعجني أن أرى دموع أخوتي تنسل بصمتٍ وحين رأيت انبثقت من قلبي عاطفة حنان، حملت مازن الصغير، قبلته أجلسته في حضني، راودني شعور غريب في أني سأفتقده، بل سنفتقده جميعاً فأحسست برعدة الخوف عليه وكانت نابعة من حبي له، "تُرى ما مصير ذلك العصفور المكسور الجناح؟!"

في هذا اليوم المقيت لم أفكر بالخروج، ولم أفكر بعمل أي شيء حتى هو لم يفكر في دعوتي إلى اللحاق به، فقررت أن أعيش فترة استراحة خاصة، سأحاول النوم ولن يكون هناك ما يعكر صفو النفس التي بدأت تشعر بالحرية من عدم وجود النكد والصياح والشجار وكلمة لا تدوس هنا، البس الصندل، اغسل يديك ورجليك، نشف يديك بهذه ورجليك بتلك،الأخوة هادئون، وفريدة كالملاك لا تحدث ضجيجاً،إذن أصبحت سيد هذا المكان والزمان لهذا قلت :

- أنا سأنام لا أريد أصواتاً، أفهمتم؟!.

فوق الصمت لاذ الجميع بالصمت، وما إن وضعت رأسي على "المخدة " حتى رحت في سابع نومة كما يقولون!

بعد الظهر رنّ الجرس، كنتُ قد استيقظت، فتح الباب أخي ناجي، كانت هي، عجوز المقت تزحلقت نحونا فقلت في نفسي من دون أن أنظر في وجهها، هذه المسيطرة ستجد مالا كانت تحلم به!

استقر في حسي أني سأداعبها كثيراً كي تجترع الألم الذي تستحق "أنت أحق من الغريب".

المتشدقة بألقاب "الستات"، "ستات" السهر والثرثرة وضعت حاجاتها في خزانة أمي وراحت تتزين بالمرود قائلة:

- الكحل العربي مع الليمون يفيد جفون العيون.

قالت هذا، واستقر وضعها على البقاء معنا ترعى شؤون البيت كبديل عن أمي، ولأن العيون الدامعة أصابها الاحمرار من شدة البكاء فقد خيّم على أخوتي تردد العويل في أعماقهم داخل هاوية النحيب المغلق!.

وبدأت عذابات الصغار تكبر ومعاناتهم تظهر، فأخي مازن الذي صار عمره ثلاث سنوات تعلق بجدتي، بعد أن نسي ترديده كلمة "بدي ماما"، وأختي فريدة أصبحت تقوم بأعمال أمي، ما عدا طبخ الطعام فقد تولته جدتي بمعونة جارتنا أم نوري، وأخواي رضوان وناجي أصبحا مهملين لدرجة تجعل

جدتي تترك البيت وتنزل إلى الجيران كي تفضفض عن وحدتها وهموم مسئوليتها إلى الجارة أم نوري، أو الجارة أم فتحي المقابلة لبيت أم نوري، وكثيراً ما سمعتها تبدي استياءً من مقابلة أم فتحي لها بجفاءٍ ذلك أن المرأة تهتم بتعليم أولادها، وتتابع تفوقهم الدراسي بفخر أمام جاراتها، وفتحي وهو كبير أولادها، كان قد صار في الصف التاسع الإعدادي، وأنا قد أصبحت أملك شهادة احتراف في معرفتي لشوارع حلب العريضة وحاراتها الضيقة !

حين أذكر ذلك اليوم المشؤوم، أذكر كم كرهت والدي وجدتي، وكم حقدت على أمي !! نعم حقدت على أمي حقداً عظيماً، أنا أختصر الزمن، أختصر التفاصيل، فالتفاصيل بالنسبة لي قشور لحظة، حجة واهية لتبرير الكثير من الأشياء وأنا لا أريد التبرير، أريد تسليط الضوء على جوهر الأشياء وإن كانت مظلمة، فالضوء كان مجرد كذبة خدعة من أصحاب الصناعات، المهم اقتربت من وجهه، تفحصته شعور طاغ أقحمني في بكاء كما النسوة من الجيران، وحين وصله الخبر، خبر موت مازن، دخل يلهث، وحين نظر في وجهه وشاهد الجسد الصغير المسجى بكى بصوتٍ عالٍ وضرب بكف يده رأسه، ثم راح يصرخ في وجه أمه، يلقي بالملامة عليها كلّ الملامة، استشعرت في هذه اللحظة كراهية و أحسست بالغربة " هذا ما كنت تريده أنت وأمك "؟.

يحق لي الآن أن أتفلسف، ولأني أريد الفلسفة اسمحوا لي أن أقول لكم أن من صنائع الاستبداد أن يموت الأطفال! وهذا آخر العنقود يسقط صريع فراق زوجين لم يجمع بينهما الودّ والتسامح والصبر على بعضهما !!.

كان الباب مفتوحاً وحين أراد ذلك الطير الصغير أن يلحق بجدته إلى بيت أم نوري تعثر على الدرج فسقط على رأسه ليصيبه كسر في الجمجمة جعله يموت في الحال.

حين وقع الحادث كنتُ عند السمان أشتري دخاناً، لم يخطرْ في بالي أني سأركض مثل المجنون لأجد أصغر إخوتي ابن الثلاث سنوات مصبوغاً برائحة الدم!.

في الطريق إلي المقبرة وبعد أن غسلوه وكفنوه انهمرت من ثقوب قلبي دموعٌ غزيرةٌ وأنا أذكر ملامحه البريئة وصوته الحزين "بدي ماما " أو لنعترف أنه في الفترة الأخيرة صار يقول " نانا تش" معبراً عن رغبته في الخروج معها!!

أعارني الدفن أن أعيش لحظاتٍ من الخوف والانقباض وأنا أقف مرتعشاً، هل كان خوفاً من القبور؟ أم خوفاً من كلمة موتٍ وكفنٍ؟ أم خوفاً من ذلك الشعور الذي راودني من تلك اليدِ الغائبةِ الآن، والتي خاطت الكفن لعمتها قبل طلاقها بشهرين!، كنت معها وكانت وهي تخيط الكفن تدمدم بكلماتٍ ما سمعها أحدٌ ولا سمعتها أنا!.

قرب قبره ناديتها قائلاً :

- انظـري هـاهم يضـعونه تحت الـتراب، رجـلٌ غليـظُ القسماتِ لف أخي بالكفن، وضعوا القطن على عينيه وأذنيه،ألا تريدين رؤية ولدك المقتول والمدفون الآن! مازن رحـل،غادرنـا بلا رجعة ودون حضورك!

سأشتري الضحك عليك بما تبقى من عمـري لأراك فقـط وأنت تشـهقين، تشـدين شـعرك، تقعين، تحـاولين الخـروج والجري نحو المقبرة وقد أصاب عقلـك مسٌ من الجنـون وأنت تنبشين القـبر لضـمه إلى صـدرك كمـا فعلت جـدتي قبـل لفـه بالكفن!!

أسبوع مضـى على مـوت أخي مـازن وأخـوتي مـأزومون تفرج عن كربتهم هذه الحـولاء البدينـة الـتي مـا عـادت تفارقنـا فقد وجدت من توافق مع طباعها في التزاور والـثرثرة التافهـة في سرد ما لم تنفرد به نفسها.

وأنـا بحكم علاقـتي مـع نـوال والـتي لم تنقطـع كـان من الطبيعي أن أنتهز فرصـة هـذه المـوّدة بين جارتنـا وجـدتي كي أحقق منالي من لقاءات الحب والتلذذ.

ولكن ماذا حصل مع أبي في مسألة بنت خالـه الأرملـة ؟ فأنا لم أنسَ أن أتلصص ليلاً وأفتح أذنيّ جيداً لألتقط ما يهمـني أن ألتقطه ففي ذات ليلة ماطرة التقطت أذنيّ ما أراح ذاكرتي التي أجهدها التفكير في هذا الموضوع :

- بنت خالك رافضة الزواج، قال نذرت نفسها للأولاد.

حينـذاك ابتسـمتُ خلسـة وأنـا أراه ينسـحب إلى فراشـه مقطب الحاجبين عابس الوجه لأغـرق في نـومٍ مـريحٍ ومـريح جداً.

فريدة يا أختي لن تفلح زفراتك الحزينة في إقناعـه على زيـارة مامـا من أجـل عودتهـا، ألا تشـاهدين حبكـة مـا تصـنعه جدتك؟، قلت هذا في سري وغادرت البيت صباح اليوم التالي!

في قنوطٍ حاولنا التأقلم مع هـذا الواقـع المفـروض علينـا وكانت الوشيجةَ التي تشدني إلى السكوت على ما حصـل بينـه وبين أمي أنه تركني أعيش حراً بلا رقيب، وبلا محاسبة أقضـي له بعض أشياء للمحل، ثم أعكـف على الـدروب المتعرجـة مـع رفاقي نزور الحدائق، كلّ الحدائق أصبحت تعرفـني، وأصـبحت أعرفها، ولكن إلى أي حدّ تبلغ بي السعادة فرحها الذي ضـيعت من أجله مستقبلي؟.

ارتجيت من الأيام أن تمضي على هـذا النمـط من الحيـاة لكنّ رنين جرس الباب الـذي أفـزع الجميـع، والـذي كـان مثـل نعيق بومة بصقت بحتف الفرح ثم توارت، كان نذير شؤم!

فتح الباب أخي رضـوان، ودخلت جارتنـا أم نـوري، دخلت على غيرٍ عهدنا بها، خيلّ إليّ أنا بالـذات وأنـا أرى وجههـا كـأني أرى وجهاً لممثلة في فيلم رعب أخافني شكله، كـانت مصـفرة الوجـه معقـودة اللسـان، منكوشـة الشـعر، وأول من اسـتقبل وجلها واضطرابها الذي أذعر الجميع والدي فسألها:

- خير يا جارة، خير ما الأمر؟

بلعت ريقها ثم قالت:

- تعيش أنت!.

قذفت بالكلمة بتحشرج جعلت قلوبنا تدمع قبل أعيننا، بداية الأمر حسبنا أن من توفي زوجها، وحين استردت أنفاسها بعد أن جلست على الأريكة عرفنا أن المتوفى جارنا في الطابق الثالث!!

وكأني مازلت صغيراً في عمر رضوان ابن العشر سنوات اقتربت منها وسألتها:

- كيف مات؟

تنهدت ووجهها الممتقع أثار خوفي أكثر من أي وقت مضى، وبعد أن بلعت ريقها مرة أخرى قالت:

- جلطة على القلب!.

قالتها ومسحت دمعة انسلت من عينها، فلم أتردد في أن أسأل ثانية:

- هل سيضعونه داخل التراب مثل أخي مازن؟.

أجابتني وغصص من الدموع تكاثفت في عينيها ثم هطلت:

- كلنا لها، آه الله يرحمك يا أبو محمد !.

حين تذكر والدي وجه الرجل، جلس أمامها يسأل كم عمره، وهل عنده أولاد، وهل كان منزعجاً حتى أصابته الجلطة ؟ ثم وبهدوءٍ استدار نحوي بعد أن عرف بعض التفاصيل التي شغلت ذهنه بعض وقتٍ وقال :

- " الجار له على الجار حتى ولو جار"، اذهب إلى المحل ولا تخرج حتى أحضر!

لن أنكرَ أن حالةً ما قد غزت حاستي، أثقل قوله هذا كاهلي لماذا لست أدري ؟! المهم أني خرجت، لم أقصدْ طريق المحل، شعورٌ غامضٌ ساق خطواتي نحو مكان آخر فقصدتُ طريق المقبرة، مقبرة "ميسلون"، زرت قبره، ألقيت بقائمة أحزاني عند شاهدة رأسه من دون أن أبكي، وعدت إلى وظيفتي التي أعمل فيها بلا أجر، لأني آنذاك قد اعتدت أن أمدّ يدي وقتما يحلو لي، منتظراً مجيئه.

كلما شممت رائحة النهر تجري في ذاكرتي تساورني نفسي في أن أمدَ يدي إلى درج الغلة، آخذ ما يفي بحاجتي ثم أغادر حين يحضر!.

بعد خمسة أيامٍ من وفاة جارنا الذي لا أعرفه لأني لم ألتق به، كبر تعبير الاحتقار مقتاً في دوائر روحي وعقلي وأدركت حينئذٍ أني لو أستطيع قتل أحدٍ أو سرقته لما وجدت غير أبي وجدتي، حاولت في تسكعي أن أنسى بعض الوقت أجاج الغليان المستشيط لعنة ورجمة في تلافيف ذاكرتي فجدتي محطة الأوصاف السحرية جعلت الصنّارة تغمز، ففي

المساء كانت تجلس قربه وتسهب في وصف الأرملة من ناحية شكلها وحسن خلقها وصبرها على محنتها، وما استلفت انتباهي بعد عدّة الأرملة وهي أربعة شهور وعشرة أيام هذا التزاور وتلك السهرات التي كانت تطول إلى ما بعد منتصف الليل، فالرجل طلب يد الأرملة وأصبحت خطيبته من دون علمنا.

حين علمت من نوال بسر هذه السهرات لم أنمْ في تلك الليلة أصابني ما يصيب أهل الغابة من خسوف القمر، فجلست أنتظر عودتهم وأنا أدخن، كنت أدخن السكائر بنهم غير طبيعي، فالجراح المتغلغلة في صدر المغلوب على أمره كانت تجعلني أنزف بسكون داخلي، وحين تأخر الوقت ولم يحضروا، خرجت من المنزل ورحت أمشي في الشوارع المستقيمة والمنكسرة، حتى وصلت ساحة "سعد الله الجابري".

في تلك المنطقة بدأت ألف وأدور، أجلس على الرصيف تارة وتارة أخرى أتجول حتى وجدت نفسي داخل سيارة جيب سارت بي مع خمسة أولاد، ثلاثة منهم في مثل عمري والرابع أكبر، والخامس أصغر.

في القسم سألني الضابط المناوب :

- اسمك؟
- غالب عبد الوكيل الدليل.
- أين تسكن ؟
- في حي الميدان
- أين؟
- قرب دار العجزة
- هل تعمل ؟
- نعم، أعمل مع والدي.
- ما عمل والدك ؟
- صاحب محل.

أصلحت من جلوسي وملت برأسي نحو الأسفل وسألت نفسي : "هل كان من المفروض عليّ أن أكذب عليه، كي لا أتورط بإضافة دائن جديد على دفتر أبي؟ ".

حين استدّل رجال الشرطة على مكان المحل وأخبروا والدي بوجودي في قسم باب الفرج رفض التعرف عليّ وأخبرهم أني لص أسرق الغلة وأتسبب بفضائح مع بنت الجيران، وهؤلاء الذين عادوا وفي أيديهم هدايا للبيت وللأولاد كتبوا في المحضر أن الوالد يتهم ولده بالسرقة لأجد نفسي مساء ذلك اليوم الماطر سواداً في دار الأحداث !!!.

ثلاثة شهور قضيتها في الدار، تعلمت فيها الأشياء الكثيرة وشاهدت فيها الأشياء الكثيرة، وحفظت فيها الوجوه البائسة واليائسة من الدنيا وحين زارنا المرشد الاجتماعي لفت انتباهه بريق عينيّ، وحين أزعجته ضحكتي النافرة طلبني إلى غرفة

الملاحظـة، وحين سـألني الأسـئلة الـتي ذكـرت، وحين اتصـل بوالدي وأقنعه بضرورة التخلي عن شكواه واتهامـه خشـية من تأزم الموقف أكثر، وحين تنـازل الوالـد عن حقـه جـاء لزيـارتي وهنـأني على خـروجي وطـالبني في البحث عن عمـلٍ حسـب ميولي قائلاً لي:

- أنت ولد حاذق، نظيف العقـل وتحتـاج إلى شـغل نفسـك بما يتناسب مع امتيازاتك، مـدير الـدار يشـكر فيـك نباهتـك في تعلم صـنعة النجـارة بـزمنٍ أدهش معلم الحرفـة الذي يعمـل لصالح الدار، وهذا كله دليل شطارتك وعليك ألا تفوت الفرصـة ولسـوف أزور أبيـك كي أسـأل عنـك لأطمئن أن وسـاطتي ونظرتي كانت في محلها.

الرجل قبلني من رأسي وهو يودعني، ووالـدي لم يقبلـني وأنا أخرج معه من الدار بعد غياب ثلاثة أشهر وخمسة أيامٍ.

حين خـرجت من الدار وذهبت معـه إلى المـنزل التـف أخوتي من حولي فـرحين بعـودتي، مـا عـدا جـدتي الـتي تجهم وجهها وبدت لي في ذلك اليوم كأنها خائفة من شيءٍ ما !؟.

المرأة معها حق في أن تخاف وتضطرب فولدها قد تزوج من الأرملة، في غيابي الرجل تزوج، وهي زغردت، وفي غيـابي بكى أخوتي كثيراً، والآن ألا يحـق لي أن أبـدأ المعركـة، معركـة الأخذ بالثأر حين سمعت بالخبر الذي ثقب أذني سـاخناً شـعرت بنفسـي أتحـول وبالمدينـة نائمـة وبفحيح الانتقـام يحتجـز أرقي وجفوة نومي من دبيب الصور في تلافيف ذاكرتي!!.

وحين تحـركت الـديوك بالصـياح، خـرجت من المـنزل وزحفت نحو سوق الجمعة، كانت هـذه هي المـرة الأولى الـتي أمشي فيها في سوق مكتظٍ بالنـاس على هـذا الشـكل، هـابني زحام البائعين بتلاصقهم الحزين في أصوات متداخلة مضـطربة مضطرمة.

على طرفي الطريق كانت الباعـة تصـرخ، تنـادي، تلتقـط الزبون، وكنت أفتش عن بائع يبيع السكاكين الحادة، فجأة برق في ذهـني العدول عمـا جئت من أجلـه، فـرجعت إلى المـنزل حوالي العاشرة!

فرح أخوتي حين شاهدوا مـا أحملـه في يـديّ وأنـا أدخـل عليهم وربما كانت المرة الوحيدة في حياتهم التي جعلتهم فيهـا يبسمون على هذا الشكل بعـد طلاق أمي ومـوت مـازن وزواج أبي!.

ورغم الحزن في نظرات الطفولة فقد اقـترب نـاجي من الحمامة البيضاء، مدّ يده كي يمسـها، ارتعش، ثم ابتعـد باسـماً فضـحك الجميـع مـا عـدا جـدتي الـتي ظلت واجمـة يكسـو الاضطراب ملامح وجهها.

ولأني عدلت عن شراء سكين للـذبح واشـتريت حمـامتين فقد ألقيت خطبة داخل سكون قلـق روحي المظلمـة قـائلاً من دون أن أحرك شفتيّ :

" أخوتي سامحوني، لا تراقبوني، لا تنظروا، فشيطان الانتقام يزمجر في داخلي بزمجرة تسدّ نوافذ انسانيتي، كلّما سأكون الآن أحد أبطال فيلم حقيقي، ينفذ مشهداً حياً"، وبقبضة جنونية حاقدة شديدة اللؤم أمسكت بعنق الحمامة البيضاء ولويته بعد أن صرخت:

- هكذا تكون الحياة!.

علا صراخهم فجأة من الرعب الذي انداح في قلوبهم فبدؤوا يصرخون بلوثٍ مثل المجانين، وأنا مغتبط النفس على صياحهم وارتجاف أيديهم، يفترسني ذلك الفرح الذي أثار ذعر جدتي عندما ألحقت بالحمامة البيضاء السوداء أيضاً!!

الأبيض والأسود ماتا، أيهما أبي؟ وأيهما زوجة المرحوم جارنا؟ أيهما جدتي ؟ وأيهما أمي ؟.

اثنان لأربعة وأربعة في اثنين، عملية حسابية غير معقدة لا تحتاج إلى حل حسابي !.

تركتهم في ذهولهم ضاجين بالبكاء، وخرجت بعد أن صفقت الباب بعنفٍ ومضيت نحو الحديقة العامة.

كنتُ غاضباً لم أرتو مما فعلت، وكنتُ بحاجةٍ ماسةٍ إلى شخصٍ يشبه إلى حدٍّ ما المرشد الاجتماعي لأقصّ عليه فعلتي التي لم ترو ظمأ الحقد الذي كان يغلي في داخلي، لم أكن بحاجةٍ إلى واحدٍ من الشلة لكنني وجدت أحدهم يتسكع كعادته، فناديته، استدار نحو صوتي واقترب مني، تصافحنا كما يفعل الرجال ثم سألني:

- ما بك؟ تبدو متوتراً أصفر الوجه!.

حكيت له ما فعلت، علني أزيح كابوس الحقد، أصابه الذعر من قوة أعصابي ومن فعلتي الدميمة!، فأكبرت فيه أن يعترف أني شديد البأس قاسي القلب!.

كالعادة بدأنا ندور في الحديقة، نجلس تارة، ونمشي أخرى حتى وصلنا ناحية الباب الذي يطل على شركة الكهرباء فسولت إليّ نفسي بسرقة امرأة كانت تعبر الرصيف لتدخل من باب الحديقة، فغمزت صديقي، فهم عليّ، بسرعة خطفت محفظتها وجريت، تسلق صراخها أوجاعي، زاد من تدفق أحزاني وأحقادي، فأسأل نفسي أي ذنبٍ اقترفته هذه المطمئنة في سيرها لأخطف محفظتها وأجري يلازمني في الركض رفيقي علي، بعد أن ابتعدنا عنها المسافة التي ما عاد صياحها يصلنا!!

بعد النزول من منعطف شارع المحطة، مشينا بهدوءٍ باتجاه الحديقة الصغيرة خلف مباني منطقة محطة بغداد، فتحنا المحفظة، لم نجد فيها سوى مئة ليرة وبعض أشياء تافهة فرميت بالمحفظة على الأرض، تابعنا المشي على رصيف جامع التوحيد ونحن صامتان، كان بائع الجوارب يمدّ بسطته وبائع الكتب يجاوره، أعطيت علياً المئة ليرة وتركته، ومضيت وحدي نحو حديقة ميسلون.

قبل منتصف الليل عدت إلى المنزل معكر المزاج ورائحة إلنهر لا تغادر ذاكرتي، وكيف تغادرها وغيظي من جـدتي وفعلـة أبي بزواجه يُدوي في صدري مثل قنابل في صحراء خاوية!.

تلبسـني الأرق، تـركت الفـراش وصـعدت إلى السـطح، المـداخن تحت ضـوء القمـر عـرائس تـرقص أمـامي، تتعـرى، إستللت سيكارة من علبة التبغ، أشعلتها، ورحت أنفث الـدخان، إمتص دخان السيكارة، أنفثه، يحلق في ضوء القمر مثل جنيـة، أضغط بشفاهي على السيكارة، أضغط عليها بأسناني، أقضمها كأنهـا شـفاه نـوال، الكـون من حـولي كلـه يجتمـع في السيكارة،أرى فيها نوال، ألمس صدرها، أعتصره، وأنا أمتصـها، أرفعهـا إلى أعلى، تنتصـب بين أنـاملي، النـار في رأسـها تتقـد حمـراء لاهبـة، نارهـا تسـري في عـروقي، تشـتعل أعضـائي، تلتهب، أطفئها، أدوسها بقدمي، أسحقها.

أرجع إلى الفراش أنام، أحس أني فعلت شيئاً ما.

صبيحة اليوم التالي استيقظت عند الضحى يأكل الإرهـاق روحي، وحين رأيت وجههـا اسـتعذت باللـه من هـذه النظـرة المريضة فتجاهلتها وأنا أكتم في داخلي حقـداً لابـدّ وأن تتجـرع منه الألم الذي تستحق!!

نهضت أجـتر قـوتي بصـعوبة، اقـتربت من آلـة التسـجيل، ضغطت على مفتاح الصوت، دورته حتى النهاية، فرقع الصـوت بأنغـام "الديسـكو" الـتي يـروق لي أن أسـتمع إليهـا، كـانت الموسيقا صادحة ؛ هـذا مـا أريـده، هيـا يـا أولاد، هيـا سـنحتفل اليوم، سنبارك زواج البابا، كنت غائباً يوم تزوج، ولن أنسـى أن أبارك له، هيا سنرقص معاً !!.

أرعدت الموسيقا في حيطان البيت، نظروا نحـوي، بـدأت أرقص، تكهـربت أعصـاب جـدتي، زجرتـني، وبختـني، توبيخهـا أزعجني، لكني لم أكترث، لن أبالي بتهديدها:

- سأشكوك، ولن أسكت على أفعالك!.

استلقيت على الأرض وبدأت أهز جسمي، أحرك عضلاتي، يديّ رجليّ، يـا للفـرح!، انضـم أخـوتي إليّ يشـاركوني الـرقص ووجهها الممتقع يزداد صفرة عنـدما أجعـل رجليّ تواجـه مكـان وقوفها متخشبة كأن صـاعقة مسـتها، بـودي أن أؤذي كبرياءهـا كما آذت مشاعرنا!.

الـرقص لذيـذٌ وممتعٌ، ما ألـذ متعتـه في مـنزل مسـكون بـالقهر والهجر والضـياع!، مـا أجمـل أن تكـون ملـك الضـجيج! تتوافـق مزاجيـة حركاتـك مـع أوتـار الآلات الموسـيقية، وقائـد الفرقة بإشـارة من عصـاه يعطي التعليمـات (أقتـل السـوداء، احـرق البيضـاء، بقـوةٍ اضـربْ، اعـزفْ ضـرباً، لا، حنـوا، أخيـتي ارقصي، هزي الخصـر بلين ٍ تعلمي فن الـرقص لتكـوني بارعـة تفوق في رقصها أبهى راقصات العالم!.

في السلم الموسيقي علامات هامة تشكل"نوتة" يعتمدها العـازف في إيقاعـه، وحين تتـدحرج الأنغـام في خلايـاه وقـد

انداحت مثل بلسم، يهيم في عزفه وهو منخرطٌ انخراط الخلايا في الجسد، يتصـبب عرقـاً، لا يصـحو من انغمـاره في ملكـوت جوانيته حتى يتوقف عن العزف!.

في هـذه الدقائق الصـارخة دخـل علينـا فجـأة، لم نسـمع صوت المفتاح وهو يدور في القفل، وبغضبٍ من تسلط النقمـة والسخط صرخ فينا:

- ما هذه الضجة؟ قلة أدب، هذا الذي كان ناقصاً !.

نظرتُ في وجهه بالقسوة ذاتها، هارباً من نظراتي قال:

- مساءً سأمر وآخذ المسجلة.

قالت أختي:

- ونحن بماذا نتسلى؟.

اجترعت كأس القهر من ردة قولته:

- بلا قلة أدب!.

الآن واليوم بالذات وبعد هذا الحدث الشيق أعتقد أن عدة الصداقة قد انتهت مدتها، انكشـفت براعتـه في كسـب مـودّتي بعض الوقت، هـاهو يجـرني وراءه مثـل أضـحية العيـد، يتركـني داخل المحل، وبادعـاءٍ فيـه كـذب مـا عـاد خافيـاً على ذاكـرتي يقول:

- لن أتأخر سأقابل التاجر وأعود على الفور!.

حين تركني ومضى، ضجت في داخلي سخرية حادة، مؤكد أنـه اشـتاق إلى رائحـة جسـدها، الرجـل مـا صـدق! رائحتهـا مسكونة في عينيه كما تسكن رائحة النهر في ذاكرتي !.

صدق حدسّي، الرجل تأخر، ولأني أردته أن يعيش لحظات غيظٍ مزعجٍ، فقد استشعرت فرحاً خفيـاً وأنـا أراه يصـرخ فـور دخوله المحل:

- ما هذه الرائحة؟... أفْ... هل تبرزت هنا؟ ابن "الشرمو" وابتلعها!!

حدجته بنظرات تقتص منه وشائج اللذة الـتي سـكنت في داخله وبهدوءٍ باردٍ قلت:

- أصابني مغصٌ شديدٌ، لم أحتملْ ضـبط نفسـي، والجـامع كان مغلقاً فاضطررت إلى أن... !

- اللـــه يأخـــذك، ولـــد وقح، هيـــا،انصـــرف من وجهي " اتفوووو" !.

هززت رأسي ولويت رقبتي وأنا أخرج، فاحتضنت نظراتي القطة والرصيف، وخوف غامض تلاعبت به أوتـار قلـبي وعقلي في ذاكرة سكنتها رائحة النهر وأنا أسمعه يقول:

- تدبرت لك عملاً، غداً ستعمل في ورشـة خياطـة بالسـيد علي.

المركب المثقوب ابتعد عن الشاطئ، تأرجحت من تسرب المياه هيبته، ما عاد يعنيني وجوده، اسمه، كلّ شـيء فيـه مـال

نحو التلاشي وكيف لا يتلاشى وهو كلّ مساءٍ يمر مرور الكلاب، يعـوي ببضـع كلمـاتٍ، ويقذف في حضـن أمـه فتاتـاً من الغلـة المعدنية، ويسارع إلى غرفة الهنـاءة في حضـانة متعـة الجسـد الذي حرّم منه طوال أربعة عشر عاماً في معاشـرته لأمي أمـا قال لي:

- أنا وأمك تآخينا!.

ولأنه تآخى مع أنانيته، تحولتُ أنا إلى ذئبٍ صغيرٍ شريرٍ!

بلا مراوغة وبلا نفاق لا تأخذ من المتع المباحـة أي شـيءٍ، لهذا كان عليَّ أن أسـتمر في تمثيـل دور المحب الولـه لأحقـق مبتغى روحي في لقاءاتٍ من التلذذ ضمن فـراغ الـدرج وسـط الظلام! وأمها هذه المعتوهة والتي كانت رهينة سهرات جـدتي، خاصة عندما يكون عمل زوجها مسائياً لا تسـأل عمـا إذا كـانت بنتها داخل البيت أمْ خارجه! لهذا كـانت تمـارس مـع من أحبت طقوس الحب !.

نفذ قوله بالإكراه بعد أن تدبر لي العمل في ورشة خياطة كما قال، حينئذٍ كان لابـدّ من اللعب على طريقـتي، حـتى دخـل علينـا كمن كـان في عـراكٍ مـع الأبالسـة، نظـر في وجوهنـا تفحصها، أشعل سيكارة حمراء طويلة، سارعت أختي ووضـعت المنضدة الصغيرة أمامه.

جلست جدتي أمامـه تكـاد أن تلتصـق بـه، أدركتْ أن في الأمر شـيئاً خطـيراً يخصـني، وبعـد هدنـة من الصـمت والفحيح انطلق صوته كما الترياق من فم أفعى:

- ولا... ك... ابن الكلب... أين كنت يـوم الأحـد السـاعة العاشرة مساءً في حي الشيخ مقصود؟.

شعرت بـأرض الغرفـة تـدور، هـوت بي أفكـاري إلى بـئر مهجورٍ تعج فيه وطاويط الليل " من أين عرف أني كنت هناك؟ من أخبره؟ "

ومن دون أن ترف عينه، كرر السؤال بصيغة أشد قسوة!.

حلفت كذباً واستنكرت ما ذكره، وحتى لا يفقد توازنه في لحظة غضبٍ ونفورٍ، وحتى لا يبدو أكثر تفاهة مما مضـى، نهض من مكانه شدني نحوه وهو يسألني بلهجة المحقق الغاضب:

- قلْ الحقيقة، لن أضربك، فقط احكِ الصدق؟.

الجواب عن سؤالٍ كهذا كان يحتاج إلى خلوةٍ انفراديةٍ بين أبٍ وولده، أيعقل أن يكون غبياً إلى هذه الدرجة؟ أمْ أنه يحاول الإشهار بي كي تسقط مسؤولية جنحتي الشائنة عن هويته؟!.

وقتئذٍ ضحك القلب ساخراً من غرابة موقـفٍ كهـذا، وكـدت أصــرخ وأنــا بين سـاعديه، أحــاول الإفلات لأرقص، لأخطب بين الناس، من سيسأل من؟ هل أنت أبٌ؟؟ أتخاف على اسـمك من عورة أفعالي ؟ يا رجل لا تقلها كي لا يضحك الناس عليك! القلب المسفوك دمـه يضـحك بصـمتٍ، من المتخلي؟ من طلـق المرأة التي تآخى جسده مع جسدها كمـا قـال بتعسـفٍ مخجـلٍ لا يليـق

بإنسان يدعي الأبوة؟!.

الحقيقة الظاهرة بعري قهرها المتعري علانية تقول غير هذا وتجعلني أشعر أن الصدأ النتن قد خيم على ذاكرتي، ولا بدّ من وجود فرصة للمواجهة من أجل القصاص، وقبل أن أفكر بطريقة تتناسب والقصاص، وبالجملة المباغتة التي تخترق صدر الأبوة النائم على النأي والهجران، جاءتني صفعة جعلتني أدور، كادت الرؤية تتلاشى ودون أن التقط أنفاسي توالت لكماته وصرخاته ولعناته، فأحسست بالصوت يئز في رأسي مثل رصاصٍ اندفع من قلب رشاشٍ، وجدتي الصاغرة كلّ الذي فعلته أن قالت:

- ياعيب " الشوم "!

وأخوتي المتكورون كانوا مثل أوراقٍ خريفيةٍ ذابلةٍ يذرفون الدموع بسكونٍ تحترق من أجله القلوب!.

رغم الإهانة من تصلف هاربٍ متخلٍ عن اسمه في وجوده ووجوده في اسمه، ورغم الضربً المهينً تحركت رائحة النهر في أنفي، فأيقظت ذاكرتي، فاستغربت مستهجناً صمت جدتي تلك التي كانت تتحدث بلا نهاية في زمن أمي!، وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي آثرت فيها عدم التدخل كي لا تصاب بالجنون مما أفعل بها بعد مغادرة أبي!.

أبو سليم شاهدني وأنا أخرج من البيت الذي كان يقصده هو الآخر! الرجل كان يخون زوجته وفي هذا لا يحق له أن يعتدي على حقوق غيره، لهذا أضرمت في صدري الحقد عليه، وأقسمتُ أن أرد على وشايته إلى أبي بإفشاء سره إلى زوجته ولكن في الوقت المناسب!.

بعد خروجه، أسلمت جسدي المنهك إلى الفراش، فأحسستُ بالآلام تنغل في جسدي، جاهداً حاولت النوم، وحين نمتُ دخلت في عالم الأحلام،عالم لا تقدر أن تتحكم بقدراته، ولا حتى يمكنك أن تخطط لصورته في شيءٍ تشتهيه، فالذي يحصل وتراه يُكتب رواية وهو في الحقيقة ومضة من عقل الحركة، العقل الذي ينقلك إلى عالمٍ خاصٍ ترتبط رؤاه الناطقة بأحاسيسك الباطنية لتشارك شخوصاً لا تعرفهم أو قد تعرفهم، هذا الكلام قرأته في مجلة عربية كنتُ قد اشتريتها من بائع "كشك" يوم عدتُ من البحر ؟!.

في تلك الليلة الماطرة بالوجع المتمترس في الذاكرة شاهدت نفسي في صحراء خاوية، تلال رمالها الصفراء أثارت الذعر في قلبي كانت صفرتها فاقعة، ولا يوجد أحد غيري من بني البشر، أمرٌ مخيفٌ أن يجد الإنسان نفسه في مكانٍ يشبه ذلك المكان وحيداً، فجأة انكمشت الأرض من تحت قدميّ واربدت السماء، صفر الهواء معلناً عن هبوبِ الرياح العاتية، فتكورت على بساطٍ من الرمال، تكومت سحبٌ رماديةٌ تميل إلى الدكنة، ثم تساقط من السماء ما يشبه حبات البرد الكبيرة كما الحجارة يوم حادثة الفيل، كانت تجرحني وتسبب لي

النزف، اصطبغ جسدي بلون الدم، فأحسست حينذاك بأني أفقد قوتي، وحين حاولت التحرك انشقت الأرض، خرج منها رجل قسماته مخيفة، كانت رائحته تشبه رائحة النهر، انقض مثل فيل على ظهري، وأمسك بأظافره الطويلة والتي شعرت بها وسخة بتلابيب منكبيّ وراح يشدني نحو حفرته وهو يضحك بصوت كأنه جار ثور، حاولت الصراخ وأنا أقاوم من أجل خلاصي من بين يديه، لم أجد عوناً لا من حنجرتي ولا حتى من قدرتي على المقاومة، حتى الأنين غاب صوته، فتراءى لي وجه أمي وهي تصلي، وحين تذكرتها وصلتني أصداء بسملة هل كانت تصلي من أجلي ؟ اقترب الصوت من أذني، ورويداً رويداً تراجع ذلك الرجل المخيف، دفعني بقوة على الأرض وغاب عن ناظريّ فوقعت فوق كومةٍ من حبات البرد الباردة الجارحة، وحين فتحت عينيّ وجدتُ نفسي على الأرض أرتعش !

عدت إلى فراشي وانطويت تحت اللحاف لا أريد رؤية الوجه الممتقع دائماً، ولكن ما هذا الصباح المقيت ؟ ماذا تقول هذه الشوهاء البدينة؟ من الذي أخبرها أن أمي، أم غالب تزوجت من زوج أختها المتوفاة، وبعد أسبوعين ستسافر معه إلى روسيا!.

لن أضحك ولن أرقص، جدي حريص على سمعة بنته، ولم يكن حريصاً على إيوائنا تحت جناح أمي، حين تدخلت الجارة أم نوري رفض جدي عودة أمي، وأصرّ على طلاقها قائلاً :

- التفاهم صار صعب، والأفضل أن يذهب كل واحد في سبيله !

اليوم بالذات وبعد سماع ما أكره، أصبح في داخلي انتماء إلى شخص سكن ذاتي، فشعرت حينئذ بأني أتحصن بالقوة الباردة، لأنهض متململاً، ومن دون أن أغسل وجهي أو أفكر حتى بتغيير ملابسي، أفتح الباب وأصفقه خلفي بعنفٍ وأخرج!.

كانت شوارع منطقة "ميسلون" تعج بالناس،خاطبت نفسي "من أنا وسط هذه الجموع ؟، وإلى أية فئة من البشر أنتمي؟" وحتى أعرف وأحدد جاءني صوت من خلفي:

- هيه، إلى أين؟

- أهلاً، إبراهيم!

- كيف حالك ؟

- بخير.

وبفطنة الحاذق سألني :

- سمعت أن أباك تزوج؟!.

أزعجني أن يعرف من أغار منه، أجل أنا أغار من إبراهيم الشخص الوحيد الذي أشعر أمامه بالنقص هو إبراهيم، ما من مرة التقيت به إلا وأحسست به يترصد وقائع حياتي ليشمت بي، ولأن موقفي ضعيف، فقد هززت رأسي والأسى المبتئس

يــزين ملامح وجهي وقســماته،وهربــاً من نظراتــه وأســئلته المجهضة، ومن دون تفكير مسبقٍ قلت :

- ما رأيك برحلة؟
- إلى أين؟.
- إلى البحر!.

لحظات مرت قرأت فيها التردد والتململ، ثم واستعدادا باستقبال الفكرة التي جعلته ينشط في الحديث قال:

- أجادٌ أنت فيما تقول؟!.
- بكل الجدية التي عرفتني بها!.
- طول بالك، دعني أفكر.
- لا وقت عندي، أريد قرارك الآن.
- لمَ؟
- خصوصيات يا أخي.
- موافق ولكن تريث حتى أقبض أجرتي.
- ---------------
- ---------------
- الساعة السابعة في محطة القطار، لا تتأخرْ، سأكون في انتظارك.

- 9 -

التسكع جعلني في ذلك اليوم أبدو كأني ولدت من جديد، لم أعدْ معتل المزاج، اكتشفت شخصاً آخر، نفسه تشبه نفسي وبسخطٍ فرحٍ قلت لنفسي "اضـرب ضـربتك القاضـية، واتـرك الطوفان يهدم من وخزك!".

رائحة النهر أقنعتني أنه من المفروض عليّ بعد هـذا اليـوم أن أخون الرجل الذي أكره، لأفسد عليـه نظـام حياتـه الجديـد، بعدما أفسد علينا رباطنا القدسي.

حينٍ قـررتُ أن أفســد عليـه حياتـه، راقبتُ الحـارة، كنتُ محتفظـاً بنسخةٍ من المفـاتيح، لم أكن مثـل لص وضـح النهـار والــذي تركــني أصدقه وأنتظــره، والــذي أوهمــني أن زوجتــه موجودة في الطابق الرابع ولا تستطيع التحرك بسبب الحمل!.

الرغبة في الانتقام تـزداد إصـراراً في نفسـي، ورغم أنهـا رغبة منحطة وقذرة لكنها الحقيقة، الحقيقة التي امتدت جــذور رداءتها في نفسي وروحي فقد تأصلت في داخلي بعطشٍ لابــد من إشباعه.

فكـرة السـفر إلى البحر فكـرة جذابـة ومريحة ولكن مـع أهلك، فمن غيرهم الحيــاة جافــة ومدقعــة، وعلى الــرغم من اعترافي بأن الحياة بلا أهل يسامرونك وتسامرهم لا معنى لها، فقـــد تمـــردت على الاعـــتراف بوجـــودهم لأخـــذ ثأرهم لأنهم موجودون وغير موجودين! وأنا لا أعرف البحـر، ولم يسـبق لي زيارتــه، وقـــد تــأتت معرفتي لـــه من دروس الجغرافيـــا في المدرسة، لذلك فكرت بزيارته!

في ظـل هـذه التخـاطرات المقلقلـة والمؤنبـة في بعض الأحيان، تحولت إلى عدوٍ كاسرٍ يريد أن يسلب الطمأنينــة من عين والده!.

لم أنمْ في هذا المساء، ولم أذهبْ إلى البيت، بقيتُ واقفاً أراقب الحارة مثل نمسٍ، حتى تأكـدت أنهـا دخلت في سـبات هادئٍ وعميـقٍ وبإلحـاحٍ من رائحـة النهـر تحكمتُ في وجيـف القلب، ثم اقتربت من قفل "الدرابية" وبصعوبة حـركت القفـل وفتحته، وابتدأت في رفع "الدرابية " بهدوءٍ، حتى كـادت تـدمى

بديّ، ألهبت جسدي بالعزم على الزحف مثل أفعى! دفعت باب الألمنيوم، لأني كنتُ على يقينٍ بأن قفله ما يزال عاطلاً !.

في الـداخل لم أتـأخرْ، وفي الخـارج الاختفـاء في الجـامع داخل دورة المياه لم يرقْ لي، بحثتُ عن مكانٍ قصيٍ أرتاح فيه من الوقوف، فأعصابي بدت مجهـدة ومضـطربة. فخطـرت لي فكرة، حملت قطعة كرتـون كانت مرميـة على الأرض وإعتليت فوق ظهر سيارة"سوزوكي"، غطيتُ جسمي بها ورحت أنتظـر بزوغ الضوء.

وقبل أن تتحرك الطيور من أعشاشها تحركت أنا وابتدأت المشي ببطءٍ باتجاه المحطة !.

داخل القطار شـعرت بالانقبـاض، ثمـة إحسـاسٌ بالغبطـة راودني، داهمتـني مشـاعر النشـوة وأنـا أتصـوره كمن لدغـه عقرب يصرخ:

- "الحقـوني"، خـرب بيـتي، الغلـة مسـروقة، والسـندات طارت، السندات التي تؤكد على إني أدفع!.

من رافقني لم يستطع الصمت، أخرجني صوته من غـرق الشرود لأنه طلب مني وبوجهٍ ضارعٍ أن أتحدث إليه!

إعتبر شرودي جفاءً مني وإهانة لشخصه، فتملكني شعورٌ غريبٌ بأني أصبحت محترفـاً في كلّ شـيءٍ، لا أختلـف عن لص وضح النهار ومراوغة أبي لزبائنه !!

في تلك اللحظات من القلق والاضطراب ارتسمت داخـل روحي صورة الذي خدعني وجعلني أنتظره، ولكن بوجهٍ جديدٍ!

هذه المرة لم يكن وجهه يملك هذه الوسـامة الـتي دخـل بهـا عليّ كـان مصـبوغاً بزرقـةٍ تميـل إلى الصـفرة، أوداجـه متورمة، ومنكباه كمنكبي من أثقلته السنون بالبؤس والقنوط.

حين انكشف أمره بعـد إلقـاء القبض عليـه، اعـترف بكـلّ السـرقات للمحلات التجاريـة الصـغيرة والكبـيرة وبالطريقـة ذاتها!!.

وحين دخلـوا علينـا لم يكن والـدي قـد اكتشـف بعـدُ أن البضاعة ناقصة، لأنه كان غارقاً مع كاترين التي أصبحت سـيدة المحل، الفتاة سلبته عقله وكلّ حساباته، و لحظة دخـولهم في توجيه السؤال:

- أنت صاحب المحل؟

أجاب:

- نعم أنا.

وحين عـرف، ثـارت ثورتـه عارمـة جارفـة، وبـدلاً من أن يصغي إلى حديثي في خوفي، وخوفي في حديثي راح يضربني، ويسبني كعادتـه، بعـد عودتنـا من قسم الغريزيـة، حـتى أدمى وجهي، وأسكر ذاكرتي في اختزانها لرائحة النهر.

في هذه اللحظات من الذكريات المريرة ضبطت نفسي حتى لا أثير شكوك إبراهيم في صمتي العميق فضحكتُ متملقاً جلوسنا هكذا أخرسين وأنا أتكلف في الابتسام فمسكته من يده بعد أن وقفت وهيأت نفسي لفعل شيءٍ ما!!

كنتُ أسمعُ صوت سرعة العجلات الحديدية تدك السكة دكاً سريعاً لكأنها تسبق الزمن الذي بدا لي أنه مرهق وثقيل وطويل.

داخل العربات تفحصت الوجوه، فما وجدت من أعرفه لا من زبائن أبي، ولا حتى من أهل حارتنا، أو حتى من أصحاب الدكاكين المجاورة لمحل أبي، فشعرت بالطمأنينة.

مع بداية القساطل دخلنا في نفقٍ جبلي، شعرتُ بسرعة القطار تزداد قوة، وبالعتمة تمزق أنفاق قلبي المضطرب، لأحسّ بالضيق يكتم على أنفاسي حتى تنفرج الظلمة!!

وكأنه كان يريد أن يكون أفضل مني في معرفة بعض الأمور الحضارية، التفت نحوي وبلهجة لا تشبه إلا نفسها قال :

- حين نمر فوق الجسر المحمول على أعمدة ضخمة سأحدد لك العمود الذي وقع فيه ثلاثة خبراء من روسيا، وما خرجوا!.

حدقت في وجهه دهشاً واستعرت من ذاكرتي اللزجة سؤالاً مهماً كي لا أبدو أمامه جاهلاً فأمقت نفسي:

- وروسيا ماذا فعلت؟.

- لم تفعلْ شيئاً، فالأمر كان قضاءً وقدراً.

وكأنه كان يؤمن بالفلسفة الوجدانية أكثر من إيمانه بالسخرية السخيفة الساذجة تابع كلامه قائلاً وهو يحرك سلسلة مفاتيحه:

- أنا وأنت مثلاً ألسنا مخطئين ولا نعرف عمق الخطر من الحماقة التي نمضي إليها!.

رمقته بنظرة فاحصة جافة تشبه لزوجة الطقس ولزوجة ذاكرتي الشاب يتفلسف، من أغار منه بدأ في فلسفة ما لا أعرف، ولأن فلسفتي محلية فقد قلت له:

- لا، لسنا مخطئين ولا تستخف بقدراتنا، فنحن ضحية أسر لا تفاهم فيما بينها لهذا تجدنا على هذا الشكل، دعنا نعش بعض الوقت بعيداً عن القوانين التي تشوش علينا امتلاكنا للغبطة التي نسعى نحوها، ولو لمرةٍ واحدةٍ في العمر!.

وتملصاً من فلسفته تركته واقفاً أمام النافذة ورغبت في النوم!

كانت فكرتي في السفر إلى البحر جريئة وغير متوقعة، وحين وصلنا هزني من كتفي، ففتحت عينيّ. كنت ما أزال واهناً، وبحاجة إلى النوم، نزلت من القطار، تنفست الصعدّاء

وأطلقت الشهيق والزفير بصوتٍ مسموعٍ، وأنا أفتح ذراعيّ كي أضمَ إلى ذاكرتي صورة أفق البحرٍ وهدير موجه الذي اشتريته بسرقة أبي. ثم كمن كان مستعداً أن يبدو أمامي أرفع شأناً مما أتصور، قال :

- خذْ سيارة إلى الأبراج.

- أتعرف المكان؟.

- نعم فقد زرته مع أخي غسان.

خلال بضع دقائق كنا هناك، اخترنا مكاناً يطل على البحر، كان المنظر ساحراً وجميلاً، وقد تربعت على عرشه البواخر والسفن.

** ** ** **

- عفواً، ما تطلبان ؟.(سأل النادل).

- إبراهيم ما تطلب ؟.

- صحن " لبنة " وكأس شاي.

بتعبيرٍ أخلاقيٍ رسم على شفتيه ابتسامة، ومضى لإحضار الطلب.

بعد الفطور أشعلنا السكائر بطريقة حاولنا فيها أن نقلدَ ما يمارسه أولاد الأثرياء في تدخينهم للسكائر الأجنبية المهربة، وبين سحب الدخان حدقت في وجهه، شعرت به قانطاً متوتراً "ربما عجزه عن الدفع" خمنت في سري، وربما ما لم أكتشفه بعد!.

كنتُ على يقينٍ أن كلينا يخدع الآخر، وبما أنني كنتُ بحاجةٍ ماسةٍ إلى رفيقٍ يشاركني خوفي واضطرابي في منزلقٍ حياتي، كنت سعيداً برفقته لأثبت له أني سيد الدفع!

وبما أني صاحب ذاكرةٍ تخيلية بارعة قلت له:

- أتعرف لو أن هذا البحر كان موجوداً في حلب لزادت عراقتها وأهميتها، وأصبحت أجمل مدينة في العالم، تصور القلعة وسط بحرٍ يغطي امتداده كلّ الجهات المحيطة بها، قال نهر قويق، أف أحسُ برائحته تزكم أنفي الآن!.

استنكر أن أكون الآن قد شممت رائحة النهر! وبحرصٍ على مجاراتي في الحديث قال:

- معك حق، رائحة النهر تشكل معضلة بالنسبة للمباني والشوارع المجاورة له، ثم ومع آخر رشفة لفنجان القهوة بعد كأس الشاي قال:

- هيا بنا، لن نقضي الوقت كله هنا.

نزلنا بواسطة المصعد، خرجنا إلى الشارع سألنا عن سيارة أجرة تأخذنا إلى رأس البسيط، فاستغرب من سؤالنا بعض السائقين الذين سألناهم لأننا كنا في فصل الشتاء ولا أحد من الناس يفكر بالذهاب إلى رأس البسيط سوى أصحاب

"الشاليهات" وذلك من أجل تفقد الأشياء الموجودة فيها، هذا ما قاله لي إبراهيم، وحين طال زمن السؤال، قررنا أن ننام في الفندق، أية حجة يمكنها أن تؤوينا في فندق، لهذا طلب مني إبراهيم أن نذهب إلى الشاطئ الأزرق، نجلس في الصالة الشتوية لنشاهد البحر عن قرب، ونتغذى سمك مشوي ثم نختار فندقاً أجره بسيط، رأيه أقنعني لأنه لم يسبق لي أن غادرت حلب أبداً !

مع حلول المساء جلسنا نحدق في السقف والجدران وهذه النافذة الوحيدة، لأشعر بأننا لاشيء، مجرد أحمقين متهورين تخاصما مع الحياة والناس وخاصة الأهل، فتمردا عليهما بالانعزال ليعيشا كما يرغبان.

سرقت أبي، وجئت إلى هنا كي أبتعد عن التشويش والتسفيه والتجريح. لأجد أن كلّ ما حلمت به كان مجرد وهمٍ؛ وإن حلم الإحساس بالراحة يتحول إلى جمرٍ يغلي في ذاكرتي وأوردة جسدي!.

نام الرفيق وبقيت وحيداً تفترسني المخاوف، اقتربت من النافذة فتحتها، بدا لي المنظر مرعباً. سواد الليل يغطي المكان، وصوت سيول الأمطار التي نزلت في هذه الليلة بدت كأنها في حالة جنون. فتخيلتها نبالاً تخترق الأرض، وحفيف أوراق الشجر غاب بين موسيقا إيقاع المطر، وجنون قلقي. فأوهمني ذلك المشهد أن جذوع الأشجار. التي كانت تحيط بالفندق ستنفصل عن جذورها كي تنقض عليّ وتخنقني تماماً كما حصل في أحد الأفلام التي سكنت ذاكرتي. أغلقتُ النافذة، وتكورتُ على السرير مرتعشاً .

في تلك اللحظة اكتشفت أن المتعة الحقيقية كانت كامنة فيما كنت أعيشه. خصومات بلا وفاق، مشاتمات بلا مشاعر، لقاءات سرية بلا رقيب، " ما تفعلين الآن؟ اشتقت إلى قبلاتك الدافئة، وصدرك الناهض. أحسُ بالشوق يدفعني إلى محاربة المطر والريح والبرد بقدرة عاشقٍ يقوى على كلّ المعيقات الموجودة على سطح الأرض لأكون قربك وفي ذلك التوقيت بالذات!.

لم يطلْ إحساسي بالشوق نحو من ُأغرمت بملامسة أنفاسها وشفتيها. صوته جعلني أقفز عن السرير مثل أرنبٍ مذعور، لم ألتقط ما كان يدمدم به، كان جسده ينتفض، وشفتاه ترتجفان، فهززته من كتفه وأنا أقول:

- إبراهيم، انهض، ما بك، اصحَ.

فتح عينيه بصعوبة وملامح الخوف تزيدني توتراً وبلبلةً، وأياً كان خوفي مما أرى فهذا ما أريده! يا لروعة الوجه المبتئس، لن أضيع الفرصة سألته:

- إبراهيم ما بك ؟ لقد أرعبتني!

- كا.. بو.. س... كابوس فظيع!.

في أسى فرك عينيه، ثم نهض، نظـر في وجهي، نظـرات قرأت فيها اللوم والعتـاب والشـعور بالـذنب. وبقـوةٍ حـاول ألا تضيع منه قال:

- غداً، نعود إلى حلبٍ، أو أعود وحدي!.

كنتُ مثله مضعضعاً، اخترنـا طريـق العزلـة عن المجتمـع المحيط، لنكون مثل ذئبٍ مشلولٍ وثعلبٍ أعمى!.

حينئذٍ جلست قربه، وبـدأنا نحكي عن همومنـا، وعن ظلم الأهـل لنا. وبحكم فراسـتي، لم يطـل زمن تـوقي لمعرفـة مـا ذكره عن كابوسه، نبش الحقيقة ما بقي خافياً عليّ، هـو الآخـر مطرودٌ من بيت أبيه، طرده أبوه وحلف يمين الطلاق على أمـه أنه لن يدخل البيت ثانية!.

أخفيت معالم النشوة التي خفـق لهـا قلـبي، وأنـا أتلقـف حديثه الشائق الجميـل، الـذي جعلـني أحس أني لست الوحيـد المغبون حقه في هذه الحياة!.

حين قررنا العودة لم نعدْ في القطار، مساء اليوم التـالي ركبنا في واحـدة من باصـات "الهـوب، الهـوب"، وحين أصـبحنا في كـراج حلب ودع كـل واحـدٍ منـا الآخـر، وحين ابتعـد عـني ترجلت خطواتي مثـل حصان جـامحٍ أصـابه مكـروهٌ، فشـعرت بالضـيق لأني عـدتُ وحيـداً لا شـريك معي، أحسسـت بضـوء مصابيح السيارات أعيناً نارية ً تريد أن تغتالني!.

أين سأذهب ؟ أعرف مصيري في بيت أبي !! فخطـر في بالي أن أذهب إلى بيت جدي على الأقل أستعيد بعض قوتي.

عند الباب ترددتُ، ثم ضربت الباب " بالسقاطة" المعلقة في وسـطه من الأعلى، بعـد هنيهـةٍ لاح جسـد من طحنتـه السنون، وقف يُحملق في وجهي بشيءٍ من الذهول!

جدي الذي أنكرني قال وهو يشـحذ الكلام من بين "دكـة" أسنانه بصوتٍ تآكلت منه الحروف:

- نعم... خير إن شاء الله ما تريد؟!.

- أريد أن أرى أمي؟.

- أم... ك، الآن تسأل عن أمك!

دفع الباب في وجهي يصدني من الدخول وهو يلعن البذرة الفاسدة والساعة التي جمعتنا وإياهم وختمها:

- الله يرحمنا، أمك صارت في روسيا !.

انخسفت بي الأرض، ونتأت خلاياي الراجفة برعشة باردة انعقد لسـاني، إذن مـا قالتـه أم نـوري صـحيحٌ! ولكن إلى هـذه الدرجـة من الكراهيـة بـدوت أمامـه نكـرة لا يقبـل أن يعـترف بوجودها؟!.

اشتعل رأسي بالنار، وتكاثف الدخان من حـولي،وتهـالكت قواي أيقنت أني منبوذ، وعليّ أن أجابه مصيري بالطريقة الـتي تناسـبني. وبعنـفٍ وحشـيٍ يغلـق البـاب في وجهي، وبعيـون

خضلتها الدموع أستعرض سمفونية ضياعي بلا توقفٍ!.

الحياة لعبة مصير، فقررت أن أكـون الغـالب لا المغلـوب ولكن على طريقتي، سأجعلهم يندمون، سأنتقم منهم جميعاً!.

طـاش واحـدٌ من القطيـع الـذي بددتـه حـيزبون المـآتم الأسرية، ولكن إلى أين أذهب؟ وأين أنام؟ وكيف أدخل الـبيت؟ ماذا لو كانت الشرطة في انتظاري ؟ وعلى الرغم من تمــردي وحقدي شعرت بالخوف، فقلت في سري:"يا رب تدبر أمري"!

خائفاً قررت مواجهة مصيري، مرتجف الخطوات صعدتُ الدرج، وحين وصلت التقطت أنفاسـي، نقـرت البـاب بأصـابعي ففتحت أختي فريدة، من حسن حظي أنهـا لم تكن نائمـة ومن خلال نبرتها المرتعشة انتبهت إلى ملامحها وسط بصـيص ضـوء الغرفة الذي انسل جزء منه إلى حيث أقف وسط ظلام الدرج، تصورت فيها ملامح أمي الذابلة! وبرفقٍ حزينٍ قالت:

- ادخل وبدون صوت، جدتك نائمة.

في الشرفة أخبرتني بصـوتٍ خفيضٍ أن والـدي متشـبث برأيه في تسـليمي إلى الشـرطة، فأسـلمت جسـدي إلى أرض السطح بعد أن زودتني أختي بحرامٍ عتيقٍ ومهمـلٍ كي لا تثـير شكوك جدتي، وبدأت أفكر!؟

لم يكن مســاءً عاديــاً، كـانت ليلــة مشــحونة بــالأرق وبالتساؤلات المرعبة، ودموع أختي المخضـلة بـالخوف أيقظت في نفسي مشاعر من نوعٍ خاصٍ، فتحـول تفكـيري إلى نمـطٍ آخر، إلى تحدٍ جديد، لأسأل نفسي" - لماذا لم أتكيف مع الواقع الـذي فرضه عليّ القـدر عنـدما انفصـل الزوجـان عن بعضـهما تـاركين ربيعاً من الطفولـة يـذبل قبـل أوانه. أختي تريدني أن أكـون رجـل الـبيت، هذا التصـور أعـاد لي جـزءاً من آدميـتي، فأحسست أني سأنزل مسـرعاً إليهـا كي أقبلهـا، وأضـمها إلى صدري قائلاً لها ولأخويّ ناجي ورضوان :

- سأكون رجل البيت شريطة أن تسمعوا كلامي!.

أمام هذه الصورة من الجمال البريء عاهدت نفسـي أني سأكون لهـا ولهمـا كلّ أهلهم وناسهم، فأنـا الآن مشـبعٌ بالرقـة والسـكينة على الــرغم من وجــود المخــاوف المعششــة في الأعماق.

صـبيحة اليـوم التـالي أعطتـني أخـتي إشـارة الـدخول، فالمحروس حضر يسأل ومضى يفتش!.

وحين دخلت الغرفة، واجهني ذلك الوجه الموبـوء بالسـأم الممل، المشحون بثرثرة الأحقاد والترهـات، قائلـة وهي تخبـط بيدها على صدرها:

- من أين جئت ؟ بسم الله الرحمن الرحيم، أبوك خـرب الـدنيا! هي "عملـة بتعملهـا"، واللـه بسْ يرجـع ليكسـر رجلـك ويقطع يدك "يي"، يا لطيف * إن من أمــوالكم وأولادكم أعـداء

لكم فا حذروهم *.

كأني لم أسمعها تتكلم، فصوتها الجليدي أكره سماعه ومن غير أن أرمم وجعها وأعطيها الجواب الذي يشفي من توترها قلت لها :

- "أنت مادخلك، وسدّي بوزك" !.

حركت يدها كأنها تشكوني قائلة:

- طيب، سنرى حتى يحضر، يا لطيف ولد مغضوب، الله ينجينا !.

وهرباً من مواجهة الحقيقة، الحقيقة الذبيحة على بساطٍ من سرقةٍ، وسرقة من؟ سرقة أبيك! فتحت الباب وعيناي تحدقان في عالم مجهول.

قضيت النهار في حديقة "ميسلون"، وتقريباً الساعة السابعة بدأت رحلة الطواف في شوارع المدينة، حتى أنهكني التعب، فعكفت إلى الشيخ مقصود حيث شاهدني أبو سليم وفي حوالي الثانية عشر ليلاً كنت أنقر الباب ثلاث نقراتٍ.

حاولت النوم فأنا مجهدٌ، لكن الخوف الذي لازمني طيرَ النوم من أجفاني، فتخيلت هوائيات التلفزة ومداخن المدافىء، قد تحولت إلى أشباحٍ تريد الاقتراب مني كي تهلكني!.

كالقرد الهارب من قفصه نزلت، وأنا أتسحب على رؤوس أصابعي، حتى اندسست في الفراش قرب أخوتي.

كان شخيرها مثل شخير محتضر، وعيناها شبه مغمضتين وفمها نصف مفتوحٍ، وشعرها القصير الأبيض منكوشٌ مثل صوف النعجةِ، ولشدة خوفي وفزعي مما رأيت أغمضت عينيّ، وأعتقد أني نمت.

في صبيحة اليوم التالي انتفضت مذعوراً، "يا لهذا الصباح الغائم"! رأيت وجهاً أثار الهلع في داخلي، كأني أول مرة أشاهده، كان محتقناً، ينمّ عن الحقد والغضب.

قرفصتُ كالمطعون في ظهره سائلاً الملائكة أن تتنزل بالرحمة. دقائق مرت وهي تحملق فيّ مثل ضفدعةٍ هرمةٍ، وبعد أن تلمظت وابتلعت ريقها قالت:

- حرام عليك، تريد تموته.

- ماذا قلت؟.

- يا حرام سرقت الغلة والسندات، كأنك ما فعلت أي شيء !.

- أنا؟!.

- آ، أنت! وماعندك خبر، مسكين يا حرام مظلوم !.

- روحي على شغلك!.

بدت ملتاثة، أصبحت تدور في أرض الغرفة وهي تدمدم:

- آخ يا رأسي، الله يساعدنا، ولد مغضوب!.

نكايـة بهـا رميت بالمنفضـة وبالكـأس الـتي كـانت على المنضدة الصـغيرة، فتطـايرت نتـف الزجـاج وأعقـاب السـجائر على الأرض فصرختْ بصوتٍ مرعوبٍ :

- الله يأخذك، ويقصف عمرك يا مغضوب!

وانقضت عليّ مثـل سـاحرة، وأخـذتني بين يـديها بعـد أن غاصـت أصـابعها المعروفـة داخـل شـعري، فضـربتها فصـرخت متوجعة:

- الله يغضب عليك ويأخذك حتى نرتاح، والله، والله.....

ولم تكمـل جملتها، لأن صـوت المفتـاح أعلن عن حضـور ولي الأمر!!.

بقسماته الغاضبة انتصـب في أرض الغرفـة، وما إن رآني حتى هجم عليّ وراح يضربني بلا وعي، فكاد يغمى عليّ!

في تلك اللحظة تمنيت الموت، وكانت فكرة الموت على يديه تروق لي كثيراً. فقلت في نفسي: اضـربْ، اضـربْ بشـدةٍ ما عدت أحسُ بـالآلام، لن أمـوت، سـأعيش حـتى أراك حـاملاً صندوق فقرك وعجزك، بعد ذلك يا مرحباً بالموت!.

لن أكون الولد الرضي، كنت البـادئ، والبـادئ أظلم! أنت من علّمـني غش الزبـائن، أنسـيت كيـف كنت تُبـدل تسـعيرة القطعـة وأنت تقـول: " الزبونـة" لا تفهم بالمقاسـات، قيـاس نمرة ثلاث سعره أغلى! ضعها على قياس نمرة واحد !!.

والتي تنازلت لك عن حقها الشرعي، تنكره عليهـا وتقدمـه إلى زوجة جديدة. اضربْ بقسوة أكـثر، لن أعـترف بمـا فعلت! ولن أخـــبرك أين ذهبتُ، وكم صـــرفتُ؟ وكم بقي معي، وأين أخفيته؟!.

- ما فائدة ضربك الآن؟ تحجرت أوجاعي، ما عدتُ أحسُ بالآلام، لن تسمع صوت أنيني أو بكـائي!، أصـبحتُ مثـل حجـر، أصم ثقيل، لا يتحرك"!!!.

رضوان وناجي وفريدة وقفوا يصـرخون ببكاءٍ مطـير وهم يشـاهدون الـدماء تنفـر من أنفي وشـفتي، وأم نـوري الـتي صـعدت إلينـا على صـوت الضـجيج والصـراخ دخلت تسـأل مـا الخبر؟ كأنت هي الأخـرى واهنـة، راجفـة اليـدين. وبـدلاً من أن تصدّه جدتي، وقفت المرأة الغريبة حائلاً بيني وبينـه، تمنـع يـده القاسية عني، فقد أدمى وجهي! وبلا مراعاةٍ للخـواطر خـواطر الــذين كــانوا يبكــون على أخيهم، خــرج وهــو يُهــددُ بإخبــار الشرطة!!.

بعد ساعة عاد كمن كان في حربٍ مع الهنـود الحمـر،عـاد وغضبه النافر واضح الملامح وبلهجةٍ متوعدةٍ قال:

- إذا اعترفت لن أخـبر الشـرطة، سـأعطيك فرصـة، معك نصـف سـاعة قـل مـاذا فعلت بالسندات ومبلـغ الخمسـة آلاف ليرة؟ فقـط احـكِ الحقيقـة! لن أضـربك، سأنسـى، ويـا دار مـا

دخلك شر!!.

اقترب ناجي يتوسله في أن يعفو عني. انضمت إليه فريدة، وظل معانداً، لن يغفر لي فعلتي، وإذا اقتضت الضرورة فهناك شرط واحد، شرط واحد فقط ولا تراجع عنه، أن أخرج من البيت ومن دون رجعة إليه!.

ركعت أختي تحت قدميه ترجوه وتتوسل إليه أن يعفو عني، قبلت ساقه، فأبعد رأسها بيده وقال :

- مبسوط يا ابن ال، خذ حوائجك وامضِ، هيا لن أقبل بوجودك، من يعرف كيف يسرق ؟ يعرف كيف يعيش وحده، هيا أخرج، اذهب من دون رجعة، يا الله "لابره اتفوووو".

حين طردني خرجت مهيض الجناحين، متورم الوجه حاملاً في صدري الجرح والألم، ولأني لا أعرف مكاناً غير حديقة "ميسلون" فقد بحثت عن مكان لا يراني فيه أحدٌ من المارة، وخواطر سوداء راحت تدور في عقلي ونفسي. لن أسكت على اهانته لي بهذا الشكل أمام جارتنا وأخوتي، سأردُّ المبلغ الى العقاب الكبير، سأجعله بلا أجنحة، وسأجعله يندم على طرده لي أمام الجارة، سأكون أنا الرجل الذي يعاقب، وسيكون هو الطفل النادم، لن أدعه يرتاح، سأهدم حياته كما هدم حياتي.

في دوامة الصراع بين احتمال الألم والطرد، شاهدني عليّ فجفت دموع قلبي.

ابتسامته جعلتني أشعر بالكراهية نحوه أكثر من كل مرةٍ لكنه فيما عرضه عليّ طيبَ خاطري، وألزمني بمرافقته!.

في المقبرة أسندت ظهري إلى واحدة من الشواهد! عبارته أرجعت ذاكرتي، ورسمت صورته، وأعادت صوته "بدي ماما"، "أين قبرك أيها الطفل الصغير؟! تعالَ لأضمك إلى صدري مثلما فعلت يوم غادرت البيت أمي!

اخرج من قبرك، دعني أقبلك، قلْ أريدُ " لفة الزيت والزعتر"! في هذه اللحظة القاسية ورغماً عني انهمرت دموعي التي كانت متحجرة، فأخفيت وجهي براحتيَّ، وكأنه عرف بإدراكه ما أحتاجه في هذه اللحظة فأخرج من جيب قميصه حبة وقدمها قائلاً:

- خذْ، ابتلعها، تنسى وتصبح ملكاً!.

حبة واحدة صغيرة، جعلتني أشعر بالخدر يسري في عروقي وأنسى، حبة واحدة أرقدت ضجيج الحقد والغضب في ثقوب ذاكرتي فتهاديت مثل قشةٍ وضعتها الريح. حبة واحدة جعلتني أتعلق بعلي وأنفذ له كلَّ طلباته، لأجعل من لغة القصاص في داخلي وأنا أحاور من لا وجود لشخصه أمامي بل في ذاكرتي نافذة في الدخول إلى العالم الذي بدأ " لخوفك من كلام الناس باتهامهم لك بالفشل وبالعجز من تربيتي تطردني، تتكتم على سرقتي لمحلك ضاغطاً على أعصابك

بجـبروت القاتـل، تطـردني لأنـك أصـبحت تخـاف مـني، وهـذه الأخيرة أضافت إلى أفعالي شيئاً قوياً، شيئاً لا يمكنـك أن تقـدر ثمنه، جعلتني أشعر بأني قد انتصرت عليك !.

تباً لك يا أبا لهبٍ، تباً لك يا أبا غالبٍ، كلّ الذي اسـتطعت أن تفعله، وفعلته أنكَ طردت ولـدك من الـبيت، فهنيئـاً لأبوتـك بما فعلت"

وحين لكـزني عليٌ بطـرف حذائـه، انتفضـت من مكـاني وسألته :

- ما الأمرْ ؟

أجاب بصوتٍ خفيضٍ:

- هسْ، يوجد رجالٌ قادمون، ازحف ورائي نحو الشجرة!.

ما أرهب هذه اللحظات؟! وما أسوأ برودة أعصابه؟!.

زحفت معه نحو الوراء كما تزحف السـحالي، وعنـد جـذع الشـجرة تمـددنا، وانتظرنـا هبـوط الظلام، فنظـرت من حـولي كانت القبـور راقـدة في جـوف صـمتها كمـا القوقعـة، والظلام يتسربل عميقاً في قلب الصمت!

ما أقسى النوم بين ظلال القبور والشواهد! وما أحوجـني في تلـك السـاعة إلى أريكـة من قشٍ أو إسـفنجٍ أو قطنٍ أو حتى خرقٍ باليـةٍ، المهم أن أجـد مـا أضـع عليـه رأسـي "انقلـع لبره، يلعنكَ ابن حرام!".

هذه الجملـة ثقبت أذني وسـكنت فيهـا، فأشـعر في تلـك اللحظـات أني أكرهــه بجنــون، بعــد أن تــراءى لي أن الحيــاة متآمرة معه ضد جميع حقوقي الإنسانية!

حين خــرجت من الــبيت مجلجلاً باليــأس ومكبلاً بفجيعــة الطرد أحسسـت أني ابتلـع جبلاً وعـراً، كـان الطريـق مشـغولاً بضجيج السيارات وبأصوات الباعة وبحركـة بعض المـارة وكنت مشغولاً بضجيجٍ من نوعٍ خاصٍ، من نوعٍ لا يظهر!.

في هذا المكان تجاهلت أني كنت أراقبه، وحين أخرج من جيب بنطاله مفكاً صغيراً وراح يحفر عند الجذع سألته:

- ماذا تفعل؟.

- هسْ، لا ترفع صوتك!.

جعلني أجلس مذهولاً أراقبـه، مـا الـذي أخرجـه من تحت التراب؟ ما هذه الأعصاب القوية ؟ إني أراه يجلس مثـل نمسٍ متمرنٍ يلف سيكارة، وكان لابدّ من سؤاله:

- ما هذا؟.

- " كيف "

- ما معنى "كيف"؟.

- حشيش!.

حين سمعت بكلمـة حشـيش تـوارت قـوتي، كمـا تـوارت

داخل القبور الأكفان والأجساد والعظام. كنت في تلك اللحظة متأرجحاً بين الخوف وبين الهروب. بين ماأحس به من ضحكٍ، فأطلق أصداءه المتعفنة داخل أفنان روحي المتكسرة لأوقظ كلّ الأموات علهم يشاركون غالبٍ المقهور الضحك على كلامه لأمي:

- آ... حاجة بقي ما في واحد مات ورجع على الدنيا، وحكى للناس عن عذاب القبر!.

فأصيخ السمع علني أسمع ما ينافي ما كان يقوله لأمي:

- " آ... ست مفتي "خانم"... بيعينا سكوتك!".

ولأني كنتُ ساكتاً أعيد ترتيب الكلمات لماضٍ لا يزال مغروساً في الذاكرة وقد بدأت أدخن سيكارة الحشيش، التفت إليّ يسألني:

- هل ارتحت؟.

- بل "انصطلت" !.

فجأة سمعنا صوت قعقعة عصاٍ تنبهت حواسي نحو مصدر الصوت، فرفعت جسدي قليلاً، ونظرت من خلف الشاهدة التي كنت أجلس بجوارها، كانت الشمس تحاول إختراق الغمام، وثمة رجلٌ يضرب زوايا الشواهد بعصاه. قررنا أنا وعليّ الانفصال حتى المساء، على أن نلتقي بعد المغرب في المكان ذاته، عند الشجرة الموازية لعمود الكهرباء.

لم أنزل من الطرف الشرقي، لحقت بالرجل صاحب العصا، وحين أصبحت قريباً منه، نظرت إليه، فرأيته مغمض العينين، فتشجعت في أن أمدّ له يد العون قائلاً :

- على مهلك يا عم، هات يدك !

خامرني إحساس غريب وأنا أمسك بيده بأني أعرفه منذ زمن بعيد، أحسست كأنه يعرفني منذ زمن بعيدٍ أيضاً! أبدى الرجل ارتياحاً من وجودي إلى جانبه، وقبل أن يترك أحدنا الآخر سألني:

- أتزور أحداً؟.

وكان عليّ أن أكذب :

- نعم كنت أزور قبر أخي الصغير!.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ضرب الأرض بعصاه، وبصوتٍ جهوري راح يردد:

- لله يا محسنين... لله.... !

تمنيت أن يكون ذلك الرجل والدي وتخيلته يناديني:

- غالب، تعالَ ساعدني، أريد دخول الحمام!.

بعد نزولنا من المقبرة نقدت الرجل عشر ليرات فسمعته يدعو لي بطول العمر، تركته ووقفت على الرصيف أفكر إلى أين سأمضي؟!

داهمتني فكـرة العـودة إليهم للسـؤال عنهم، عن أخـوتي فهذا حقي!

اسـتراحت الفكـرة في رأسـي المتعب، فسـابقت الـريح وحين وصلت، أسرعت في الصعود إلى الـبيت بحـذر. فقـد بـدا لي أني سأواجه مصيراً متعباً، وجهي لم يشـف بعـد! طـرقت الباب طرقاً خفيفاً، وبعد هنيهة من الانتظار المزعج، فتِحَ البـابُ وبصوتٍ مهذبٍ قالت:

- ادخل، جدتك، عند أم نوري.

نظرت في وجهها أتأمـل قسـماته، كانت عيناهـا غـارقتين بالدمع فسألتها عن السبب، فقالت:

- بابـا لن يرسـلني إلى المدرسـة، قـال: واجـبي أن أتعلم شؤون البيت والطبيخ، ومستقبلي في الـزواج وليس في طلب العلم.

ضـربت رأسـي بنخـوةٍ أيقظت كـلّ الكبريـاء الهامـد في نفسي:

- يريد أن تشتغلي خادمة، أما يكفيه ما فعله بي؟!.

مسحت دموعها التي انسـلت من عينيهـا على خـديها من اختزان الألم ثم رمتني بابتسامة مشحوذة، وكأنهـا تـدرك أكـثر مني أبعاد الوقيعة، قالت:

- أنسيت أني سأخدم إخوتي؟!.

أخرسـتني وأخرسـت نبض الـدم في عـروقي، أكـانت تقصدني؟

أكـانت تلمح إلى علاقـة أبي بي، وعلاقـتي بـأبي!؟ شـعرتُ بـالتوتر يغـزو ملامحي الجافـة، الضـيق يتشـعب في الصـدر وبنظرة خاطفة حانية قلت :

- بوسي رضوان وناجي، وخذي بالك منهما ولسوف أسأل عنكم، لقد تأخرت!.

في ظهـيرة ذلـك اليـوم شـعرت بتغـيرات الطقس تشـبه تغيرات نفسي فنحن مع بدايات دخول فصل الصيف، بلا عافيـة رحت أمشي، أجتر خطواتي اجـتراراً دبقـاً وأنـا ألـف وأدور في الشوارع والحـواري وقـد اعـتراني اليـأس الـذي اغتصـب فـرح العقاب الصغير!.

ولحظة قرأت الإعلان المعلق على واجهة المحل الزجاجي ترددتُ في الدخول، ترددتُ في السـؤال، ترددتُ في أن أكـون أجيراً مرة أخرى فعدلت عن الدخول للسـؤال عن عمـلٍ، فمـا زال معي من المال ما يفي حاجتي!.

دخلت إلى دكـان الفـوال أبـو عبـدو طلبت صـحن فـول بالطحينة مع فحـل بصـل كمـا يقولـون وجلسـت أفطـر، كـانت شـهيتي إلى الطعـام قوية، مسـحت الصـحن كله ورغبت في طلب المزيد لكنني خجلت!

وحين خرجت من عند دكـان الفـوال، رأيت إبـراهيم وهـو يخرج من محل تصليح الساعات، ندهته، التفت نحوي قائلاً:

- أهلاً غالب، كيف حالك؟.

- الحمد لله.

تنبهتُ إلى شــيءٍ مهمٍ، شــيء كــان يجب ألا يغيب عن ذاكرتي فسألت بلهفةٍ:

- صحيح، ما أخبار أمك وأبيك؟ هل طلق أبوك أمك؟!.

- فأل الله ولا فألك، انحلت.

- كيف؟.

- تــدخل صــهري بالموضــوع،لا تؤاخــذني مســتعجل، إنــه ينتظرني.

- من؟.

- صهري.

في الحقيقة لم أكن أريد له هـذه النهايـة، كنت أريـده أن يكـون مثلي ولأنـه كـان غـير مضـطر أن يجـود عليّ بتفاصـيل الأشياء فقـد تملص بحنكـةٍ وركض يقطـع الشـارع، وأنـا أراقب ظلاله التي صـارت بعيـدة عن عيـني، شـاهدت الرجـل الأعمى يحاول أن يعبر الشارع فركضت نحوه مسكته من يده وقلت:

- مرحباً يا عم، أتريد عوناً.

- كأني سمعت هذا الصوت!.

- أنا غالب الذي كنت أزور قبر أخي هذا الصباح.

- أهلاً، بارك الله في سعيك.

ومشى على الرصيف ينادي " لله يا محسنين لله " بعد أن تــرك يــدي، فعــرفت أنــه لا يريــد أن يظــل بقــربي، فقــررتُ مطاردته!

بدأ خط سيره من منعطف مفرق "الجابريـة" إلى شـارع "الحميدية فالنيـال"، وعنـد كـلّ زاويـة كـان يقـف بعض الـوقت ينـادي "للـه يـا محسـنين" حـتى وصـلنا الجـامع الكبـير!، وحين ابتـدأت الشـمس تميـل نحـو المغيب خـرج الرجـل من البـاب الرئيسي للجامع الكبير، ما أثقـل الـزمن الـذي كـان يمـر ببطءٍ على رأسي وقدميّ وأنا واقف أتعقب كلّ حركاته وردود أفعالـه مع الذين يدفعون، والذين لا يدفعون.

حين خرج الرجل وقفت أمامه وقلت بكل جرأة :

- مساء الخير يا عم، أتريد عوناً ؟

- أنت ثانية ؟

- نعم، أنا غالب وأرغب أن أساعدك في عبور الشارع!!

شعرتُ بروحه ُتحـدقُ بي وهـو مغمض العيـنين، إحسـاسٌ غريبٌ دفعني إلى التفكير بملاحقته، حاجة ملحة دفعتـني وبكـل

جرأة في أن أقول له وأنا أمسك بكوع يده:

- لديّ مشكلة ولن يساعدني على حلها أحدٌ غيرك، أرجوك أعطِ المغلوب على أمره فرصة البوح والفضفضة، فأنا مطرود من بيت أبي!

- مطرود! لا حول ولا قوة إلا بالله.

فرفع الرجل بعصاه وهو ينقر حجر الرصيف وقد اهتزت أوداجه ولحيته الكثة، وتركني أمشي إلى جانبه من غير أن يقول شيئاً، أو حتى يسحب كوعه من بين أصابعي !.

من الطرف الشمالي للمقبرة مقبرة "ميسلون"، وتحت الدرج دخلنا إلى مكانٍ يشبه المغارة، كان يعرف الطريق جيداً وكأنه مبصر.

ثمة حمارٌ أبيض كان يقف في طرف المغارة، وحين شاهد صاحبه يدخل راح ينهق. ربما من الفرح لأنه لم يعد وحيداً، وربما لأني دخلت معه. كانت رائحة الرطوبة تضغط على الأنفاس، وأمام الفعل الجميل وعلى الرغم من وجود كلّ الأنات الهاصرة لأحلامي، توقف الضجيج المعربد في رقعة هذا المكان المخيف وسمعته يقول:

- أهلاً بك في بيتي المتواضع.

- يسلمْ البيت وأصحابه.

مع بداية هذه العلاقة أعترف أن زمن الاكتشاف العجيب لم يكن طويلاً، فالرجل لم يكن أعمى. كان مبصراً ولشدة دهائه جعل من نفسه أعمى كي يُلقط رزقه كما كان عليٌ يُلقط رزقه بالسرقة ليدخن- الكيف- وأنا الوليد الحديث العهد بينهما، لأكون فيما بعد الشريك والمشترك فيما أفعله وفيما لم أفعله.

مددت الحصير المهترىء على الأرض وجلست قربه أسندت ظهري إلى تجاويف الحائط البني الداكن، وببشاشة طيبة النبرة سألني:

- هل أنت جائعٌ؟.

حقيقة، كنت جائعاً لمعرفة السبب الذي جعله يمثل دور الأعمى على الناس، وحين أيقنت أن الخير والشر وجهان لعملة واحدة أحسست بشوق عارم لنوال، راودتني مشاعر الشوق في أن نلتقي معاً في هذا المكان القصي، نختبر فضاء ر وحينا بلقاء العاشق. بحسته داخل كهف لا يهتك الستر فأذكر ما كانت تقوله "أنت تكذب علي لا تحبني"!

في اللحظة تلك يورق ذراعاي فيورق الحلم السرمدي المخضب بدخان نرجيلة الشيخ محمد فأسمع تردد نأمة الإخلاص في عذوبة ضمها إلى صدري:"- أنا بحبك، بحبك حتى الموت".

أتلقف رضاب كلماتها من ريق فمها وأعصر شفتيها بين

شـفتيّ، وبحركـة ما تفلت من بين يـدي وتغيب وراء سـكون الباب وهدوء الليـل! ويظـل عطرهـا الأخـاذ معششـاً في خلايـا روحي وأنفاسـي، حـتى أتنبـه من حلمي لأواجـه ضـمن هـذه الرقعة الصغيرة ما أفزعني لحظـة حـدقت إلى مخبئـه التحـتي وإلى نظرات عينيه الشهلاوين المحدقتين بي!.

- ما تريد أن تعرفه عني؟ قصة حياتي، يوم ولادتي، شجار أمي مع جدتي، وجدتي مع أمي!

كـره أبٍ زرع اللـؤم والحقـد والتمـرد في الصـدر والقلب والجبين نغماتُ حبٍ خفيٍ لن يزهـر أبـداً! إذن اسـمع تفاصـيل قصتي، ولا تفوت حرفاً.

بإمعانٍ راح يستمع إلى التفاصيل بعـد أن ارتسـمتْ على شـفتيه ابتسـامة جذابـة، شـممت منهـا رائحـة حنـانٍ، جعلتـني أطمئن إلى مجالسته في مسكن أحزانه!.

أغمض الحمار عينيه، وأغمض الشيخ محمـد عينيـه بعد أن استلقى بجسده على فراش من الإسفنج مليءٍ بالبقع والدهون تفوح منـه رائحـة العفن، بينمـا ركب رأسـي القلـق لأشـعرٍ في هـذه الليلـة برغبـةٍ في أن أنهـزم إلى حيث ينـام عليٌ، لكن الطمأنينة التي انداحت في داخلي جعلتني أندس تحت اللحـاف المهترىء بعد أن وضعت الرأس على أريكةٍ من قشٍ.

وهنٌ شديدٌ بعثرَ كلّ أفكاري وآلامي، وشدني إلى نـومٍ على الرغم من جراح النفس.

صبيحة اليوم التالي استيقظت مثقل الرأس، موجع الظهر وجلست أسأل روحي "تراني سأتعرف إلى أرواح جديـدة ممن تحفظهم المقـبرة داخـل ترابها ؟!. أم سـأتعرف إلى أشـخاص أحياء لا يهجرونني ولا يوزعون الشـماتة في أشـلاء روحي؟! أم سأصـاب بـالهول من فظـائع الأمـور حين أسـمع صوت أحـدهم يخاطبني من غير أن أراه ؟!.

كانت كلّ الأفكار تجيء و تتـوارى بغمضـة عينٍ! والشـيخ محمد خرج يلملم رزقه بعد أن تركـني وحيـداً أغـط في نـوم لا يشبه النوم.

تأملت المكان والحمـار جيـداً، تمـنيت أن انقلب إلى حمـار مثله كي أعيش بلا ألم وبلا توبيخ ضمير، فتقشـف هـذا المكـان ارحم بملايين المرات من سرير وفراش دافئ نظيف يقض من هدوئه ثرثرة عجوز لا ترحم، لهذا قبلت بهذا القدر الـذي فـرض نفسه علي.

علاقـة غريبـة توطـدت بيني وبين الشـيخ محمـد، محورهـا الهـروب من واقـع الأخطـاء المفروضـة علينـا، يجمعنـا الليـل ويـؤنس وحـدتنا حمـار أبيض. هكـذا وبلا مقـدمات ماديـة تجـد نفسـك في مكـان غـير مكانـك الأصـلي، مكـان فرضـته عليـك ظروف أسرة لم يكن الحب بينها، بل النكـد والحـرد والطلاق، والزواج، وحين كنت سجيناً في دار الأحداث يـدفعك إلى التوبـة

مدير الدار والمرشد النفسي. فينتهز والدك فرصة عدم وجودك ويتزوج!.

وحين شُفيَ وجهي من أثر علامات الضرب التي أحدثها أبي، بدأت البحث عن عملٍ! ولن أقبل أن أكون عالة على صاحب المأوى الجديد!.

حين خرجت من المغارة رأيت الضوء الحقيقي، فنور مصباح زيت الكاز كان يجعلني أشعر بالسأم والقنوط، ونهيق الحمار يسرق مني الهدوء، فأشعر بالخوف.

في شارع "النيال" درتُ على أصحاب المحلات لبيع الألبسة الولادية والنسائية، وحين قرأتُ الإعلان المعلق على واجهة اللوح الزجاجي ترددتُ في الدخول، ترددتُ في السؤال، ترددتُ في أن أكون أجيراً مرة أخرى، لكنني مضطر، فدفعت الباب، ودخلت.

كان جالساً وراء منضدة كبيرة يشرب فنجان قهوة، رده البارد أزعجني لكنه عندما قال : نجرب، فكرت في القبض على صلعته ذات الانحدارات المتنافرة كي أقبلها.

كانت مهمتي أن أمسح الغبار عن خشب الموبيليا بقطعة قماش من القطن الناعم، في هذا المكان الواسع تخيلت أبي يقف أمامي معتذراً عما بدرَ منه في حقي وأنا أدفع إليه المبلغ الذي سرقته من المحل، وهو نادم على قبوله شرط الزوجة الجديدة " مالي علاقة بالأولاد".

بعد التاسعة أذن الرجل لي بالانصراف وقد أبدى ارتياحاً من خبرتي في التنظيف.

مضيت ناحية دكان الفوال أبو عبدو أريد العشاء وما إن دخلت وجلست على الكرسي، ثمة يدٌ وضعت يدها على كتفي فاستدرتُ :

- مَنْ علي ؟ يا مرحباً.

دعوته، فشاركني العشاء، وحين أردت الدفع سبقني في دفع الحساب وخرجنا معاً، حاولت أن أتملص منه فلم أقدرْ، حاولت التهرب من أسئلته ففشلت، ووقعت في الاعتراف الصعب! فأخذته معي إلى المغارة، لم يكن الشيخ محمد قد عاد بعدُ! فنفضت الحصير، ثم مددتها، ووضعت المساند المحشوة بالقش، وجلست قربه أنتظر عودة الشيخ محمد لينظر في هذه الورطة. وحين أخرج من جيب قميصه السيكارة شعرت نحوه بمقت يتجدد في داخلي، رفيق السوء يشدني معه إلى رائحة الحشيش، فأدخن وأغيب مع خيالي، لأسرح مع نوال على سلالم الدرج، في المطبخ، في بيتهم تعتصر شفتاي شفتيها، أضغط على صدرها بصدري النحيل فأحس بنشوةٍ تعتريني، ويدخل الشيخ محمد، يرى الدخان يملأ المكان، يشم الرائحة فلا يبدي انزعاجاً، يرحب بالضيف الجديد ويقول بصوت مبتهج :

- دخن عليها تنجلي!

اكتشاف جديد آخر أضاف إلى قائمة أحزاني الإدمان على سكائر الحشيش، لأكتشف فيما بعد أن المعسل من التنباك الذي كان يضعه الشيخ محمد على النرجيلة لم يكن خالياً من ذلك الشيء الممنوع.

رويداً، رويداً بدأت ُأدمنُ على تعاطي الحشيش، مرة من عليٍ وأخرى من الشيخ محمد، في الوقت الذي كانت فيه شهيتي على الطعام تثير دهشتي، والكثير من الأسئلة !.

في محل الموبيليا وحيث أتقنت العمل جيداً، أصبحت أتقاضى الأجر الذي يفي بحاجتي إلى سدّ مصاريف طعامي وسكائري بصنفيها الممنوع والمسموح به، ولأني كنت صاحب أنفة وكبرياء، فقد انزعجت من المعلم صاحب المحل، حين دخلت سيدة أنيقة ذات جمالٍ يسلب العقل، زاغت عيناه بساقيها المملوءتين والمكشوفتين حتى الركبة.

وحين أمرني أمامها بطلب السيد من الأجير، استنفرتُ وتكهربت أعصابي، وتوترت أنفاسي، فحدقت بالإثنين، ثم حدقت بالمرأة "هيَ أنتِ انظري في وجهي، أنا لست أجيراً، أنا ابن صاحب محلٍ أيضاً احتواني هذا الأصلع بعد أن اختلقت عليه الكذب قائلاً له : يا عم أنا أبحث عن عملٍ كي أساعد أمي على مصروفنا، تركت المدرسة بسبب موتٍ والدي بمرض السُكر،لم يترك لنا ما يحمي طفولتنا من غوائل الفقر والحرمان، من أجل أخوتي وأمي ضحيت بمستقبل دراستي".

في ذلك اليوم المشمس نقدتني المرأة بخشيش الغرفة التي دفعت ثمنها نقداً، خمسمائة ليرة، وحين التقيت بعلي قلت له :

- تصور يا علي خمسمائة ليرة بخشيش !!

برقت عينا عليٍ وسَهُمَ بنظراته عني، ثم انشغل بلف سيكارةٍ، دخنت السيجارة في المقبرة ونقدته مائة ليرة ومضيت نحو بيتنا القديم.

وما إن وجدتني أدخل البيت حتى رشقتني بنظرة لئيمة كتلك التي لا تتوانى عن اجتثاثها من أخاديد تصهر روحها، فسألت نفسي حينئذٍ " ما الحدث الجديد الذي يجعلك تحدقين إليّ بهذه النظرات اللئيمة التي جعلتني أكرهك أكثر من كلّ مرةٍ!؟ "

حين دخلت البيت، فجعني أن أرى أخي رضوان يئن من ارتفاع الحرارة. أزهرت المرارة في روحي البائسة بالأسى والاكتئاب فخرجت مسرعاً، وعدت مسرعاً، نبهت أختي إلى ضرورة العناية به وبإعطائه الدواء كل ست ساعات كما أشار الصيدلي!.

لم أفكر بمغادرتهم، كنت مشحوناً بالشوق، ومشحوناً بالحقد أطحن اعتلال النفس برؤيته وقد أفجعه الله بوليده

الجديد، فأختي أبلغتني أن زوجه حامل وفي الشهر الرابع!.

بوجعٍ غارق في الألم غادرت البيت، وقبل أن أغلق الباب ورائي قلت:

- فريدة بأمانتك رضوان وناجي.

- 10 -

حين دخلت المغـارة مَثُـلَ في خـاطري أنـه يعـرف عـني بأكثر مما أعرف أنا عن نفسـي، تنصـتَ باهتمـامٍ بالغٍ إلى مـا فعلته، وهو غارق في شرودٍ من أطيافِ حنانٍ لمحتها تبرق في عينيه، فقد اغرورقتا بالدمع!.

فجأة تحـول الرجـل الشـهم إلى رجـلٍ آخـر، رجـلٍ شـديد الغضب والزجر!.

شعرتُ بالغضب يكاد أن ينفجر من داخل عينيه الشهلاوين فنظراته القاسية أرعبتني، وجوفت قدرتي على التبرير، فكرت بأسباب غضبه فوجدته محقاً، كيف لم يخطرْ في بالي أن أتكتم على مكان إيوائي، لمـاذا فاضـتْ نفسـي بالتحـدث عن الشـيخ محمد إلى أختي؟ في تلك اللحظة تمنيت أن أتحول إلى طـائرٍ من بشرٍ ينقر على الباب كي تفتح لأهمس في أذنهـا أن يظـلَّ مكان تواجدي سراً لا يعرفه حتى الجن أنفسهم.

وكأنه كان مدركاً لعفوية ما فعلت، وكأنه كـان لا يريـد أن يؤذي مشـاعري فقـد حصـل الـذي حصل ولن يتكـرر أبـداً فقـد سألني :

- ألمْ تشاهد عليّ ؟.

في هذا السؤال رقد الجواب، لم أكن قـادراً على تفسـير أسباب اهتمـام الشـيخ محمـد بعلي، ولم أكن قـادراً على زجـر الحمـار الـذي ينهـق حين يسـمع باسـم عليّ، أو بصـوته لحظـة يدخل.

وفي هذه المرة أضاف إلى نهيقه أنه عطس ونفض رأسه وحركَ أذنيه، بعدها حاول أن يجد فسحةً للتجول.ِ.

بهذه الجلسة سبحنا تحت دوامات من الدخان صارت تحوّم عنـد سـقف المغـارة، استسـلمنا إلى حالـة لا تشـبه إلا نفسـها لأكتشــف فيمــا بعــد أني قــد أدمنت على تعــاطي الحشــيش والحبوب المخدرة!.

حين جمعت بين علي والشيخ محمـد، لم أكن قـادراً على المقارنــة بين الاثـنين، أن تقـارن بين رجـل تجـاوز الخمسـين وشاب يطفح في وجهه حب الشباب أمر صـعب، بـل مسـتحيل

لهذا آثرت الالتزام بالصمت المطبق.

فأنا وقبل أن تصبح هذه المغارة البديل عن بيت أبي كنت على درج البيت وبلا استجداءٍ أمارس مع نوال أعنف القبل وأجملها وكلمة بحبك تسري في عروقي مثل جدول رقراق، فأشعر أني بحاجة إليها لهذا كنت أتجرأ وأذهب إلى العمارة وألتقي معها في الليل، وحين وضعت في عنقي السلسال الذهبي الذي تملكه أيقنت أنها تحبني لدرجة التضحية بكل شيء.

في آخر لقاء تركتها تستسلم لرعشة قلب متمرد، مخاوفه ذابت مع خمرة القبل السابحة في فضاء العتمة بين الظلام، هي أحبت غالب بكل جوارحها وأنا أحببتها بكل شوق الفتى وقوته، ولكن في هذا اللقاء لم أكن في غيبوبة كما أوهمتها، كنت أريد، لضوء المصباح أن ينير هذه الظلمة،لأرى بوضوحٍ هذين النهدين المتكورين اللذين كبرا على يدي، كنت متلهفاً لأظل معها حتى الصباح، لكن أصوات بعض الجيران جعلتنا نقطع جلستنا، وتغيب في العتمة وتدخل البيت.

حين جمعت بين الشيخ محمد وعلي أحسست رائحة النهر تسري من أنفي إلى ذاكرتي. خُيل إليّ أنني اكتشفت عقرباً لدغني بعد أن فضَ هو الآخر عهد الصداقة، فانساقت نظراتي في اضطرابٍ ترمق حيطان المغارة وسقفها، الحمار، جرة الماء، خزانة المؤونة التي كانت تعج بالصراصير الكبير منها والصغير.

هؤلاء جميعهم تمنيتهم أن يتحولوا وبغمضة عينٍ إلى شرطةٍ تعتقلنا!.

ألهذه الدرجة يدوت أمامه تافهاً وحقيراً كي يتململ!، وعلى مضض يوافق أن يكون البديل هو السلسال، هذه الليلة لم أكن شاعراً بالمحاسبة أو بالمفاتشة، ولا حتى برغبة في الكلام، ولا حتى في الغناء، كنت بحاجة إلى آدميٍ له قلب يُحس ويشعر عله يخفف عني مواجيد آلامي ووخزها.

في زمن قصير جمعتنا ألفة محفوفة بالمخاطر، وفي تلذذٍ من اغتباطٍ فتحتُ نوافذ الحواس المتيقظة على الالتقاط وأنا أسمع قصة الشيخ :

- قتلت زوجتي التي خانت حُرمة البيت، كنت عائداً على غير عادتي سمعت صوت تأوهات تفجر لها عقلي فشعرت برأسي ينشق إلى نصفين حينئذٍ طاشت بصيرتي فهجمت عليها وتركتها تسبح في دماء عارها ولذت بالفرار، لم أحمل في صدري سوى صورة منتقم أقسم أن يفقأ عيني الرجل الذي شاركها على تدنيس شرفي.

وكأن حكاية الشيخ محمد أفلتت عقدة لسان علي ليتحول الصداع في رأسي إلى وحشٍ كاسرٍ يلتهم أحشاء رأسي كلها، كنت غير مصدق حديثه عن أبيه! أحقاً هو من دربه على تعاطي سكائر الحشيش؟

بعـد أن لعب الحشـيش في رؤوسـنا، ضـجت المغـارة بالضحك وضـحكت أنـا ضـحكة "تـنين" قاتـل هـارب، وحشـاش وسارق ممتهن، يا للسقوط في مستنقع الوعد يا غالب!!.

أهذا ما كنت تريده يا أبا غالب، تتركني في مغبة من حقدٍ لأقع بين خطاطيف جاهزة، عن يمين، وعن شمال، تباً أبا لهبٍ تباً أبا غالبٍ!.

لم يكن في مقدوري أن أنسى إخوتي، كارهاً تركتها تحدق إليّ وحين زجرتها، انكمشت على نفسها مثل دملة محتقنة تكاد أن تنفجر!.

أخيراً جهرتْ بالحقيقة، نطقتْ بلا ثرثرةٍ في فنٍ بـالكلام، فتلك مهنتها التي لا تجاريها بها أية سيدة في مثل عمرها !.

لا تدعك تقتربين من طفلها خشية أن يتأذى! الآن جاء دور يبدأ زمن التحسر وشكواك من أتراح زمانك تُدثرينه بزمن الحزن على زمن أمي الذي كان يُشكل معضلة في حياتك،أبهذا الشكل تتآخى الانكسارات؟!.

ويبدو صاحبة الانكسار الشنيع حبيس قفص شهوته، كل الذي فعله شعوره بالأسف الشديد نحـوك!، وكل ما قدمـه أن أغلق دونك الباب بعد أن باع الدار في زقـاق الطويـل، وتركـك ترعين له أخوتي كي تمارسي سلطانك عليهم!.

الآن حان وقت الضحك عليك بلذة، يا مسـكينة! باعـك كمـا باع أمي، انقلبت لعبة القمار عليـك، هـاهو لايـني يبكر آنـه لبيتنـا متحججاً إما بالتوعك أو بقلة التحصيل من أرباح المحل.

لأخرج حاقداً أكـثر من كـلّ مـرةٍ، كـان في داخلي شـيء يغلي يؤذي عصبيتي، وكنت بحاجةٍ ماسةٍ إلى شيء تتـبرد عليـه أعصابي لتكون عربة "جوز الهنـدً" في انتظـار انتقـام الطريـد المطرود!

بجنــونٍ نفضــتُ عن كـاهلي أثقـال التــوتر والانزعــاج، واشتريت واحدة ومضيتُ نحو حديقة "ميسلون"!.

اخترت مقعـداً خاليـاً يقـع في منتصـف الحديقـة، جلسـت بهدوءٍ مسكتها بكلتا يديّ وخاطبتها كأني أخاطب حياً:

- سعيدٌ لوجودك بين يدي وحيدة، لا، لا تخجلي، لا تجعليــني أمقت الحيـــاء! كـــوني هادئـــة، لا تتحـــركي كي لا أعـــذبك استرخي،هكذا، نعم هكذا فلن أؤلمك!.

غرزت رأس مفتاح المحل فيها، فقد كنتُ ما أزال محتفظاً به وبضغطةٍ قاسيةٍ أحدثتُ ثقباً، لمعت عيناي بشهيةٍ وأنا أرفعها نحو شفتيّ لأشـربً المـاء الموجـود داخلهـا بعطشٍ لم أعهـده في نفسي، ثم بصقت ما بقي في فمي!.

وقفتُ بسرعة وقذفتُ بها بعيداً، بلمح البصر كانت تفرقع على أرض الحديقة وقد تفتت وتبددت نتفاً!.

من الطبيعي أن يستنكر من فعلتي بعض الجالسـين على المقاعـد في الحديقـة، ومن كـان عـابر طريـقٍ!، لأضحك على

دهشتهم، بـل على اسـتنكارهم بعـد أن أطفـأت جمـرة غضـبي وجنون تفكيري بالانتقام!.

خيوط العنكبوت، الثرثرة الدامسة، طلاق أمي، زواج أبي، زواج أمي من زوج أختهـا، مـوت مـازن، حـبي العـابث، أنت مطـرود، أنـا متـبرئ منـك، يـوم ميلادي يعـني يـوم بـدء سـيرة حياتي!.

- 11 -

حين عـدتُ إلى المغـارة أصـبحتُ أراه بوجـهٍ مسـتطيلٍ يضحك ولحيته تهتز، وأرى علياً يرتفع عن صحن الأرض، وأتخيل "هنودة" أبي تحولت إلى مومياء بطول المغارة، وطفلها حـازم يرضـع من ثـدييها المتهـدلين اللذين تـدليا حـتى كـادا يتصـلان بالسّرة!.

كلّ المدارك توقفت، كلّ الخفايا العدوانية ظهـرت،لأغيب في لجــةٍ من ضــحكٍ مجنــونٍ، وفي مجــونٍ ســريٍ للغايــة أخاطبه :

- ترسل زوجتك سطل - فريكة- مغطى بفتـاتٍ من جلـدة الفروج وعظام الفخذ!

- لماذا حُكم عليّ بالطرد؟!.

كلّ الفئران تأكـل، كـلّ هـوّام الأرض تشـبع، ومن غير أن أدري دفعتُ علياً بقبضـة يـدي وتجـاوزت المسـافات، تجـاوزت الزمن،عند قبره جلست أبكي وقد أخفيت وجهي براحتيّ كفيّ!

انظر يا مازن إلى وجهي، هيا اخرج من قبرك، قـلْ "بـدي ماما" فلا أسمع غير صوت صفير الهواء يوسوس، فيــتراءى لي أني سأخوض معركة دامية مع الأموات الذين أزعجتهم!

أجلس القرفصاء متقوس الظهر، يخامرني إحسـاس بـأن القبور تتحرك، وبأن الأكفان ستخرج وتطير نحوي، وبالخفافيش التي بدأت تحوم فوق رأسي أنها تقصدني، تقترب مني، تتـأهّبٍ كي تنقض عليَّ فأرتجف وأتكور ورعشات الخوف تزيدني وجلاً وضعفاً والتصاقاً بشاهدة قبره.

وحين شعرت بالراحة عـدت إلى المغـارة والضـيق يفتـك بأعصابي أرجوكم دعوني أنـام بلا تشـويشٍ، اتركـوني وشـأني، خرج الشيخ محمـد على غـير عادتـه، لن أبـوح بمـا يحصـل في غيبته، أنا الآن أعيش مع مجموعـة من الأرذال الـوقحين دخلـوا إلى المغارة بدعوة من علي، هذا الفتى سريع الصـحبة وسـريع التـأثير، أقنــع الشــيخ محمــد باستضــافة أصــحاب الســوابق والهــاربين من أحكــام المحــاكم، مقابــل التكفــل بمصــاريف الطعام!!

كان الزمن هـو العلاج الوحيـد الـذي جعلـني أنسـى هويـة والدي وما فعله بي، وحين جاء بعد مضي عامين على خـروجي من بيته كي يعيدني طردته كما طردني، ولأنه قرأ تهديداً سافراً في نبرتي بعد أن كست ملامح وجهي صـفات الزعـران، خـاف على نفسه من طيش مشردٍ أصبح متهوراً، ربمـا يدفعه طيشـه وحقده وتشـرده إلى أن يخسـر حياتـه وحيـاة "حزومتـه". لهـذا خرج من المغارة مائل الظهر يجـر أذيـال فشـله في خيبـة من خوفٍ وإنكارٍ، ليبقى مصراً على نكراني وهو يلعن الساعة الـتي أعطى فيها وعداً لأختي في أن يعيدني إليهم.

كيف أعود، وقد أصبحت خاتماً في يد علي وأصحابه، ولن أخون الشيخ محمد في تركه مع هـؤلاء الـذئاب الـذين أصـبحوا من سكان هـذا المكـان الضـيق، وقـد أعطيتـه وعـداً في عونـه على الأخذ بثأره ممن انتهك عرضه.

الشيخ محمد أخبرني سراً بعد أن احتوى في مغارته على جمع من هؤلاء الأفاعي الذين يأكلون الحرام بالأصابع العشـرة، أنـه يريـد أن يكسـب مـودّتهم وعطفهم بغيـة اسـتخدامهم في معركة الثأر. لأن الرجل ما يزال إقطاعياً وعنده حـراس وكلابٌ بوليسية وقد احتاط لنفسه في رفع سور المزرعة على ضفاف العاصي !.

حين نظـرتُ في وجهـه، تـذكرتُ تلـك الابتسـامة الخبيثـة تذكرتُ ذلك الهدوء، تذكرتُ أناقته، والزمن يرجـع نحـو الخلـف "دقائق ولن أتأخر عليـك، أصـحاب هـذا الـبيت في أمريكـا منـذ عشـر سـنوات". لأذكـر ضـرب والـدي بعـد العـودة من قسـم "العزيزية"، فأنقض عليه أريد خنقه، فيعلو صياح الرجال، ويهب الشيخ عفريتـة مثـل مـارد ويشـدني بقسـوة، ثم يقـذفني على الأرض فأهوي مثل غصن شجرةٍ يابسٍ.

حين سـألوني عن السـبب ذبت في دائـرةٍ من صـمتٍ مكفهر القسمات، وجل النظرات.

من أجل خاطر الشيخ عفريتة لزمت هدوء الصمت، لا أريد أن أخـرب عليـه خطتـه، وعدتـه في أن أكـون يمنـاه ويسـراه، أبوعبدو وصفه بالعفريت، توجوه باللقب، رغماً عنه صار اسـمه الشيخ عفريتة!.

وأبو عبدو سألني بعد أن جلست هادئاً:

- من أي صنفٍ أنت؟.

زمهر السؤال في نفسي،أنا لست لصاً، كل مـا آخـذه من أجرٍ وبخشيش أضعه في يد الشيخ محمـد، بـل في يـد الشـيخ عفرًيتة اسمه الجديد!.

- لماذا تريدون اتهامي بما لم أقترفه !؟.

- من هم المتهمون؟ ومن هم الأبريـاء؟ من هم أصـحاب الخطيئة؟

ومن هم المنزهون عن الخطيئة؟.

أحاول ربط الزمان بالمكان، الماضي بالحاضر، جمع أنقاض ماضٍ جثا فوق عمري كرمادٍ متلبدٍ لزجٍ لا يمكنني عزله.

أدوسُ حافي القدمين، البرودة الرطبة ُتنعشني، تنعش ذاكرتي أعتقد الآن أنها المقولة الوحيدة التي كانت فكرتها صائبة من قبل والدي معك قرش بتساوي قرش، وإذا كنت لا تملك القرش فحاذر أن ترفع وجهك أمام الذي يملك القروش، إنه زمن القروش.

مالك القروش، يجدد أشكال السيطرة المستبدة. يريدونك أن تكون عاجزاً لا تقوى على مواجهتهم، وكل ثرائهم هو من جهد المتعبين. أبو أسعد صاحب الصالة – ملك الموبيليا- هكذا كان بفخر ُيردد، يمكنه أن يشتري بقروشه أجمل وأصغر البنات ثم يبصق بهن إلى الفساد والبغي بعد أن يشتري بماله فض بكارتهن.

كلّ هذه الحقائق الشائبة، استطعت أن احترز بها ضد زماني الحالي وأنا أكتب قصة حياتي، بعد أن اكتشف المصلح الاجتماعي موهبتي الفذة في الكتابة،حين أخضعني إلى امتحان صعبٍ.

في البداية طرح عليّ أسئلة شفهية، ثم تركني في غرفة الملاحظة أجيب عليها بحرية تامة.

مع هذه البداية بداية إكتشاف أصحاب الفهم لكوامن النفس الداخلية، تبين له أني أملك القدرة على التعبير والوصف، فأخبر مدير السجن بأن يمنحني فرصة لسرد سيرتي وما واجهته من مشكلات وما تعرضت له من أحداثٍ لضمها إلى أرشيف من يكتبون داخل السجن قائلاً لي أمامه :

- ربما تتخرج من هنا كاتباً لك خصوصية.

انظر يا عمي وجيه إلى ابن أخيك من أبيك كيف أنه قد بدأ يبرع في كتابة ما يحصل داخل السجن! لقد لفقوا تهمة للمهندس فائز، يريدونه مشلولاً، دسوا تحت "مخدته" حبوب ممنوعة، كيف دخلت ونامت تحت "مخدته" لا أحد يعرف؟!، ألا ترى الحبكة كيف سددت هدفها؟.

الورقة الأصل اختفت، فأصبح هو الجاني وصاروا هم الطلقاء!!.

ما حكاه يدعو إلى الجنون، عمارة كاملة تتهدم، أبرياء يسقطون موتى، وهم في الخارج يمرحون بعد أن وقفوا يتفرجون وسبوا وشتموا صاحب الفعل الرديء!.

امتهان غريب للإيقاع بالأبرياء، مسكين فائز هدّه أن ينجو أصحاب الفعل الخبيث ويقع هو.

لحظة مضت، بل لحظات انقضت، اعتقدت فيها أن القدر

ناصرني حين تعرفت على أبي حسن. كانت تهمته مشاجرة تسببت بعاهة مستديمة، ليجد أنه من الأجدى له أن يدخل السجن حتى تهدأ النفوس. وحين تدخل الوجهاء ومختار الحي، أسقط صاحب الدعوى حقه مقابل أن يدفع له أبو حسن كلّ مصاريف العلاج وفوقه مبلغ خمسين ألف، الرجل وافق لأنه ميسور.

كانت أضواء الحجرة الكبيرة لا تعرف الانطفاء إلا إذا صرخ من مكانه من يحسبون لوجوده ألف حساب:

- أطفئوا الضوء نريد النوم يا رجال.

في شخصه ما يرغمك على الإصغاء له، تنفيذ طلباته. ربما كان السبب كرمه الحاتمي على السجناء في ذلك "القاووش "، وربما لأنه على صلةٍ مع أكثر حراس السجن، وضباطه.

حظوتي عند أبي حسن جعلتني أستشعر الكراهية في عيونهم، وأيضاً حصولي من الضابط على بعض الصحف العربية والمحلية لأطالع صفحات الثقافة، وخاصة ما يكتب عن الطفل.

ولكن لماذا يكرهني ذلك الرجل؟ قرأت الكراهية في عينيه وفي ملامحه التي بدت منفرة فقلت لنفسي "تعوّد على الصبر يا غالب " !.

لكنه تحرش بي، وبعنجهيةٍ اقترب من سريري، وسيكارته في فمه، نفخ الدخان في وجهي فسعلت!، فتأفف مشمئزاً من صوت سعالي ثم أردف وبسخرية:

- "دخيل النبي الحقوا الصبي، اختنق" !.

لم أحتملْ وقاحته، فنهضت بعصبية ورددت عليه بما يتناسب وكلامه:

- ما أحد صبي غيرك!.

فردّ عليّ بفظاظة:

- و.. لا.. ك أنا صبي؟!.

انتابني الفزع وأنا أراه بكلتا يديه يطوق عنقي يريد خنقي! تحولت قوتي إلى شظايا ضعيفة من وطأة الاغتيال المباغت،لأجد نفسي بين ضغط قوته بأني قد تحولت إلى صورة قبيحة من الضعف المهين!!.

بسرعة نهض الرجال يتقدمهم أبو حسن وعمي وجيه فانتزعوه عني كما تنتزع الرصاصة من الجسد!.

دق معول الحقد في صدري وعقلي وفكري، وفي كل جزء من جسدي، فتحولتُ إلى شيءٍ آخرَ. من جديد تخلقت في نفسي سوداوية تُزود روحي بوقودٍ من الحقد السرطاني الذي كان ذات يومٍ مستشرياً في العقل والروح والفعل، الذي

ارتبطت إرادته برائحة النهر في أبعاد نفسية سحيقة ما عدت قادراً على ضبطها، عاد العواء، عواء الذئاب، شحيج البغال، الخواء الفكري العائد إلى ارتكازه القديم- النقمة والانتقام.

صورته وأنا أمسح به أرض "القاووش" وقد تحول إلى جيفةٍ من رمادٍ، أسعفت ضعفي الذي كاد يجعلني ملتاثاً، فاقداً حتى ذلك الغضب.

أصبح عالمي عالماً مليئاً بالأسماء، التي جعلت من حقدي مرسماً عامراً بالوجوه المقنعة. أيها القاضي احكم عليّ من دونهم فأنا لا علاقة لي بسرقة "الفيللا"، لماذا تربط مصيري بمصيرهم، لو أن الشيخ محمد على قيد الحياة لأطلعك على الحقيقة.

في طريق العودة، محرك السيارة يُدوي في أفنان روحي المتيبسة، القاضي مسافرٌ إلى الحج، فتأجلت الدعوى ثلاثين يوماً بدءاً من تاريخه.

عندما عدت إلى "القاووش"، انزويت على السرير كعادتي. فبعد حادثة التحقير التي حصلت كتمتُ رغبتي في الانتقام منه، وأنا أندبُ زمكنة عمري الفائت والحاضر!.

لكنه حين دخلت الحمام لحق بي، انتهز فرصة غياب الرجل الذي يحمي وجودي بينهم وعمي. وقبل أن يتمكن من التحرش بي، صوبت نحوه فردة الصندل التي جاءت على عينه فصرخ بألمٍ.

حينئذ ضجَ صياح الرجال على صوت الصراخ بانفعال غاضب،لم أكترث لغضبهم ولا لكلامهم. كان همي أن أردَ له الصاع صاعين كي لا يتنكر من وجودي بينهم، فمهما كنت ضئيلاً في نظره، فأنا بنظر نفسي مازلت غالباً الذي يغلب ولا يُغلب.

في المساء جلسنا ُنحدق في التلفاز، أبو حسن دفع، والذي يدفع يستطيع أن يؤمن على نفسه داخل السجن !.

تعجبت كثيراً من ميل الرجال إلى الصمت أمام الشاشة الصغيرة، فالنظر إليها يُتعب العيون ومع هذا كانوا يحدقون!.

تركتهم في ذهولهم يستمعون إلى شرح مفصل عن الكسوف وما قد ينجم عنه، تكورتُ على سريري فارغ الرأس حتى من رائحة النهر. ما فعلته جعلني أشعر بالراحة، لكنه صباح اليوم التالي عاود الكرّة.

- استيقظ يا وجيه، انهض، ابن أخيك شج رأس مزهر بالملعقة!. قال واحد من الرجال.

لم أجرؤ على النظر في وجه الضابط مروان، ولم أرفع عينيّ عن الأرض. كنت مدركاً أني سأعاقب، وبلا تلكؤ أو حتى خضوع إلى محاكمة وضعوني في الزنزانة الانفرادية.

كانت الروائح الكريهة تنبعث من تلك الرقعة الضيقة بشكلٍ مقزز، فلا تقدر على سحب الهواء الذي تحتاجه رئتاك

فجلست مثل غوريللا فقدت الحياة في الغابات. الأقوياء لا يندبون حظهم، هكذا أفهمني الشيخ محمد وحكاية الشيخ محمد تصحو في ذاكرتي التي عادت نظيفة لم يرهقها هؤلاء السجناء، ولا حتى لقائي بعمي بعد هذه الغربة من الزمن.

غادر المدينة، وفي نفسه تلك الرغبة على النيل ممن انتهك عرضه في غيبته، كانت بغيته أن يفقأ له العينين معاً لكن السكين التي اهتزت في يده خذلته، فآثر أن يقبل بواحدة. لأن صراخه الذي دوى مثل قنبلة مباغتة حرك حراس بستانه، فقتل اثنين ولاذ بالفرار من دون أن ينْسى قسمه على الأخذ بالثأر كاملاً!.

صوته الآن يهز أوتار قلبي، لا تنتحب، من كان مثلك يا شيخ محمد لا يعرف البكاء.

عبد الفتاح هو السبب، لولاه لما وقعنا. الحقير أخفى في خرج الحمار المصاغ، ولأنه من أصحاب السوابق وملاحق راقبوه وراقبونا معه من غير أن ندري! وكيف ندري و ياسين أقنعنا أنه هارب من يد العدالة في قضية تزوير عملة، لنكتشف بعد فوات الأوان أنه كان شريكاً له في عملية السرقة.

دخلوا علينا مدججين بالسلاح بعد أن طوقوا المكان، في اللحظة تلك خفق قلب الشيخ محمد بشدةٍ، وانشق صوته المدوي في صدى صيحة مجلجلة تقطعت، ثم تحشرجت ليقع على الأرض وعيناه مفتوحتان تحدقان في ثأرٍ بات مستحيلاً.

حين انتهت مدة انفراديتي، عشرة أيام قضيتها وحيداً داخل العتمة خرجت ضعيفاً واهناً، خرجت من الضيق إلى الأضيق المسكون بالشماتة والازدراء.

اضحك وأنت مطعون، ابتسم في وجه من تحقد عليه وتكره وجوده، كن ضاحكاً غير متذمرٍ أو معترضٍ، لا تصارع غير الضعيف فيهابك الضعفاء!!.

حملتُ حقيبة انكساري وذلي، وجلستُ على سريري كي أستردَ بعض قوة كادت أن تضمر. عمي في المحكمة، والشخص الشهم مع زواره من أهل بيته، وقبل أن أعرف مدى عمق المفاجأة، المفاجأة التي صدعت لها أحزاني، بدأت ألاحق نقل الخبر متلهفاً، نشوة من الخمر أسكرتني بلا خمرٍ، صوت تكبير الجميع يعلو كأنهم في صلاة العيد، وكنت معهم أُرَددٌ غير مصدق النبأ.

مرسوم جمهوري من السيد الرئيس يصدر للعفو عن المساجين لم أنتبه إلى التاريخ المذكور، تزحلقت عن السرير و"هوب" تحولت إلى راقصٍ خلع ثوب الحقد في موسم القطاف.

مسكني من يدي أبو حسن الذي عاد من الزيارة، قائلاً:

- بس، بس بقى، اهدأ هل جننت؟.

سحبت يدي بنزقٍ مثل زنجي مخمور بين قرع الطبول في غابة كثيفة الظلال. لكن الضابط مروان وبتحديقٍ غاضبٍ لعدم احترام الرتب وقف يحدجني بعينيه اللتين بدتا واسعتين رغم صغرهما!

طالعني وجهه الأسمر، تراءى لي أني أقف أمام جبروت الشيخ عفريتة، كان العرق يسح من جبيني مثل زيتٍ على رغيف خبز، وقبل أن يغادر "القاووش"، أودعني بنظراته وصية أن أكون هادئاً غير مشاغبٍ.

كنا بين مصدقين وبين مكذبين، وبلا مللٍ جلسنا نفكر بطريقة تصلنا مع العالم الخارجي بلا إحراجٍ في تجريحٍ وتجريح في إحراجٍ!.

كنت واحداً من بين المئات الذين نبتت في داخلهم رغبة تتوق في الحصول على الحرية، ولكي تضحك آلام التعاسة والشقاء على قارورة الوجد من سمفونية الرغبة أيقنت أن العفو لن يشملني وصحبة السقوط في مغارة الشيخ عفريتة.

العفو لم يكن شاملاً كلّ الجنايات من قتلٍ وآداب واتجار بالمخدرات، كنا نعلم أن الإفراج عنا يعني الخروج إلى بدايةٍ الوجع لا نهايته، إلى حيث يشير الناس عليك فتنطوي خانعاً ذليلاً تنزف من جراح شخصك المهان ما يجعلك تشعر بأنك منبوذ من قبل الناس كافة!

مراقب كيفما تحركت، أحلامك لا وجود لها، في دوائر الدولة لن تجد عملاً، وعند أصحاب المال لن يأتمنك السيد على ماله أو بضاعته، فلماذا تحزن يا غالب؟!.

الأذلاء يتوافدون، والتاريخ كتب في السجلات بين الدفاتر والأوراق بأختام الدولة- محكوم عليه- وأنا واحدٌ من هؤلاء الذين وقعوا بين خيوط العنكبوت البرية، لتصبح كلّ حقوقه من حق طفل آخر، طفل أنجبته زوجة أبي ليحتل مكان الأخوة جميعهم!

هنا في هذا المبنى الذي تعتبره الدولة إصلاحياً، يوجد الكثير مما تجهله عيون الرقابة وبأكثر مما يحصل في الخارج!.

وفي خضم معرفة ما هو مجهول من معارف التواطؤ والتجسس والانحراف عليك أن تكون دقيقاً في تعاملك مع الآخرين من أصحاب السوابق أو الجنايات الشائنة، وقد بدأت تظهر أمامي حقائق عن الحيزبون التي لا تختلف عن سوالفها من الحموات الحاقدات اللواتي يرفضن وجود الكنة فيُحرم الرضيع من ثدي أمه لهفوة من كنة، أو لعنة من حماة أو بمعاكسٍ من ثرثرة الأغراب في بث الضغينة بغية التفريق، فتتلون أشكال الحرد والطلاق والهجران!.

ثمة سؤالٌ يؤرقني، أريد جواباً يطفئ ظمئي :

- هل التضحية جملة انعزالات؟ وهل في عزل الرجل عن أولاده من قبل زوجته الثانية تضحية؟ أمْ ضحايا؟

في عزلتي مع أفكاري التي تقاسمني همومي، ومع أنفاس هؤلاء المساجين المطحونين بالوجع أشعر بمزيد من الأسى بعد أن استفاقت في داخلي هذه اليقظة الفكرية الاجتماعية والتي كانت كامنة خلف أبواق الروح المجروحة، والتي فجرها المصلح الاجتماعي، والوجه الذي ألفته فألفني !.

فبعد مضي بضعة شهور على وجودي في السجن نظرت إلى وجهي في المرآة، فرأيت ندبة شوْهاء كأني أول مرة أنظر إلى وجهي لأعرف أنه يحتوي على ما يسمى- حبة حلب- أغالبٌ أنا أم مغلوبٌ؟ أمحظوظٌ أنا أم منحوسٌ؟ ولأني وأنا أهرس القمل بأظافري أحس باستخفافٍ غير رحيم وأنا أضغطها بين أصابعي فأسأل نفسي لماذا كلّ مخلوقاتٍ الأذية يجب أن تقتل!؟ وجابر وهو يمّسد شاربيه يتدخل معترضاً وهو يقول:

- حرام عليك دعها تنعم بالدّسم، ما شاء الله كل يوم "فراريج وكبب"!.

محدقاً في سواد عينيه أردّ عليه:

- حسد ولاّ ضيق عين؟.

فيردّ على سؤالي الذي ينكره ويكره أن أعاديه بهذه الطريقة من الاستخفاف قائلاً:

- حشرية!.

ولأن الرجال قد وصفوه بالحشري فقد راقت له هذه التسمية وما عاد ينزعج، فهو وكما وصفه عمي وأبو حسن عديم الإحساس.

ولأن الرجل قد تلهى عني، نهضت بخفة الريش ناحية عمي وجيه الذي كان غارقاً في قراءة رواية الغريب لكاتبها- البير كامو- فحدثت نفسي وأنا أراه ذائباً حتى الخدر "على رسلك يا عم لا تكن غواصاً مثلي، حينذاك لن تعجبك الحياة على اليابسة، عالم الماء أمده قصير لأنك لن تكون عروس بحر، ولن تتمكن من المكوث طويلاً تحت الماء، سيأتيك زمن تجدُ فيه من يُنغص عليك كلّ أحلامك وحتى كلّ أوقاتك! ".

انتبه إلى وقوفي في صمتٍ، أصلح من شأن استلقائه على السرير، وأزاح لي مكاناً قربه.

مرت لحظات كأنها أعوام كتلك التي لم تغادر ذاكرتي! ما أسمعه الساعة تلك يدعو إلى الإصغاء!، حاولت أن أجتر ضحكي الممزق المتقطع بصعوبةٍ، الأفعى السرطانية أوهمتنا في حديثها عنهم أنها قُهرت،ظلمت،ذاقت الذل، جاءت لهذا قالت من أوله أحسنه!.

على رف السلطنة، سلطنة المرأة التي رفضت الحياة مع الزوج الذي يصغي إلى مشورة أمه، ولدّ ذلك الرجل(الطفل)

الذي كان والدي لأولد أنا، يا أبا حسن اسمع بالـذي سـمعت ولا تستغرب!، في منغلق هذا المكان أتعرف على أسماء أعمـامي وعمـاتي وأولادهم، ألا يعتـبر هـذا التعـارف من أرفـع العلاقـات الاجتماعية رفعة وشأناً؟!.

اكتب في ذاكرتك عن كلّ ما تسـمع لتحكي بعـد خروجـك عن قصـة لا تشـبه إلا نفسـها، وأنت يـا وجيـه، أنت أيهـا العم العزيز سجل على دفتر قلبك قصـة لقائنـا في تعارفنـا الـذليل، ابن أخٍ لا يعرف من هو عمه؟ وعمٌ لا يعـرف شـكل ابن أخيـه حتى اجتمعا في مكانٍ محتجزٍ بين الأسوار !.

للمرة الثانية بعد دخولي السجن يضج السجناء بأصـواتهم فتتجلـل حركـة الضـباط والحـرس، حريـق يفـزع كـل الوجـوه وصياح ضاج يصطبغ بزرقة الملامح التي استوحشت فتوحشت، يجلجل بأصدائه كـل الأمكنـة، فتشـعر أنـك بحاجـة إلى سـدادة كاتمـة تمنـع عن أذنيـك مـا يجعلـك تشعر بالصـمم، تفكـيرك بـالهروب محصـور بـالموت إمـا رميـاً بالرصـاص أو حرقـاً بين القضبان!.

الارتباك والقلق والفزع يغطي كلّ الوجوه، كلّ الزنزانـات والردهات والممرات تـرتج من سـرعة الحركـة والضـجيج، كـلّ الطوابق تسـتنفر، هـذا الاستعصـاء في حـرق المطعم أدى إلى بلبلـةٍ مزعجـة اسـتطاع أن يخمـدها ضـباط الشـرطة وحـرس السجن بالتعاون مع رجال الإطفاء.

بعد القضاء على الحريـق الـذي وصـل خـبره إلى شـوارع المدينة ورجالات أمنها، أحالوا مـدير السـجن إلى التحقيـق مـع الضــباط المنــاوبين ومن ثم نقلــوهم إلى مكــانٍ آخــر، وحين وصـلني الخـبر عـرفت أني سـأكون الخاسـر الوحيـد في هـذا السـجن!، فبعـد هـذه الحادثـة لا مطالعـة ولا صـحف ولا أقلام، حينئـذٍ تمـنيت أن أكـون ذلـك الطفـل الـذي مـات تحت عجلات "سوزوكي " عمي!، ليكون قاتل ولـده واحـد من أخوتـه الـذين باعدت بين قلـوبهم حـيزبون كـانت قـادرة على إشـعال الفتنـة دون المحبة!.

وحين سـمعت بـالخبر الـذي كنت أحرص على سـماعه، تسقط من علياء العظمة، برفضك النهر، تحصد حصيلة امتهانك للبخـل والتقتـير،الخيبـة والمـرارة، أشـعر بـالحزن عليـك ولا أشمت!.

أحقاً ما قاله عمي، أخيراً تعترف بأنك قـد بـدأت تحنُّ إلى صمت أمي وصبرها على أنانيتك، أحقاً بدأت تنفر ممن ألزمتـك بقيودٍ من مصاريف لم تعد قادراً على تحملها!؟.

ما أرفضه الآن أنك تقول بأن كرامتك لا تسمح لك بزيارتي لأنك تخشى من مواجهتي، فتلك الحقيقة لا يعرفها غيرنا.

ومـا أحـزن لأجلـه أنـك أخفيت الحقـائق الـتي تكشـف المستور،الحقيقة التي زيلتها بشوائب من زيفك الخـاص بلغتـك

كي تنجو من تجريم الناس لك بعدم التزامك بالأبوة الحامية لماذا لم تقل له كيف كنا نشحذ المصروف منك؟ ولماذا لم تُصرحْ له بالحقيقة، الحقيقة التي تقول: إن من فتح آفاق شهوتي الطفولية على حب النساء، والتحديق في نهودهن وسيقانهن وخصورهن هو أنت! أتذكر يوم طردت أمي أم نوري؟ هل نسيت ما قلت "حاذر وأنت تقابلها كن حريصاً، لا نريد مشاكل" !.

أرفض أن تعود إلى ذكر اسمي، أرفض أن أعترف باسمك وبأنك أبي, يا أبا حازم انسَ أنك كنت في يوم أبا غالب، لأحدد الفاصل الأخير بين المرغوب به وغير المرغوب.

ما يجعلني أبتئس أن موعد الدعوى قد تأجل والسبب عطلة قضائية، وسؤال ملحاح يضج في نبض القلب وأوتاره كم عاماً ستحكم عليّ أيها القاضي الجليل؟.

أنا متهم بترويج الحشيش وتعاطيه،هذه الأخيرة نعم، أما الأولى فلا علاقة لي بها، وجود صاحب سوابق كشف سرنا في مأوانا الهزيل ليفقد الشيخ عفريتة حياته بعد أن عرف أن حكايته لن تكون خافية على أمن الدولة(تزوير شخصية،انتحال اسم، قتل، هروب وإيواء سكارى وحشاشين ومطلوبين للعدالة، و، و)!.

ذاكرتي التي فقدت رائحة النهر ما تزال متوقدة تتقاذفها يقظة السياط، طلاق أمي طلاقاً تعسفياً، بلا مقدم، وبلا مؤجل وحتى بلا نفقة لعدة الطلاق.

وأنا المغضوب منه والمغضوب عليه، أتوه في شوارع المدينة بحثاً عن مأوى وعن مغسل وعن مطعم. الطريق الأول المقبرة الطريق الثاني مغارة الشيخ عفريتة، الطريق الثالث السجن المركزي والمدة مازالت بين يدي القاضي!.

- 12 -

- مطلوب للزيارة؟
- أنا؟
- نعم أنت!.

بلا شعور بالفرح قفزت من مكاني مثل أرنبٍ، لم أغسلْ وجهي ولم أبدلْ ملابسي،أصبحتُ وراء الشرطي ًأمشي مثل متجولٍ مع دليل ٍ نزلتُ بضع درجاتٍ بعد أن تجاوزتُ العديد من الممرات والأبواب الحديدية الموصدة، وقفتُ مذهولاً، النساء، الأطفال، العجائز من الرجال والنساء، أصواتٌ يبعثرها القلق والضجيج، دموعٌ هنا، ووجومٌ مبتئسٌ في كلّ زاويةٍ من زوايا المسرح!

الأصداء ضاجة بأنفاس الكلام أكثر من ضجيج شوقها، سجناء يبيعون الهدايا، "هدايا للأحباب، هدايا للأعياد، قهوة مرة"، كلّ هذه الأشياء مصدر رزق لسجين يملك وساطة!

ومصور يدور بين الكراسي الحجرية يبحث له عن زبون يلقط له صورة للذكرى، صورة بالألوان مختلفة عن صور ذكريات الأفراح والأعياد، وأمام من رأيت يقف لاستقبالي، فغرتُ فمي، لتخمدَّ الأحقادُ في عناقٍ طويلٍ طويلٍ.

جاءتني ترفل بحجاب أحزانها البكر والذي لم تدنسه يد شاب قميء حين تبرعم نهداها،ولم تسلك نموذج نوال في اللقاءات السرية على سلالم الدرج رغم مجاورتنا لهم ومصاحبة جدتي لأمها!،ضممتها إلى صدري فاحتواها قلبي!

كان وجهها مثل باقة ذابلة في عينين متلونتين مخضلتين بالدمع الذي حبسته عيناها لحظة جلسنا.

ما تقولين؟ الآن تسأل؟!! أمي تسأل الآن عني!!لا لن أغفر لها، ولا أريد سؤالها عني،هي الأخرى شريكة أبي أدارت له ظهرها فأدار لها عمرها وعمر أطفالها، فقدنا مازن وفقدت وجودي، ما فائدةُ ما ترسلْ ؟ وبنبرةٍ حادةٍ قلتُ لأختي :

- وزعيه على اليتامى، على الذين لم تمتْ في داخلهم الرغبة في الحياة وقولي لها ولأبيك اتركوا غالباً وشأنه، لا تفتحوا على نفسيكما براكين الحقد !!

أسمع صوت الشهقة تلك التي لم تنسها ذاكرتي، أسمعها

تندب حظها مع أبي، وحظها مع زوج أختها المرحومة هل تغير؟ هل عاشت معه أفضل من عيشها مع أبي؟ أختي قالت إنك تبكين من أجلي، إنك ما شاء لك البكاء، ففي البكاء حكاية عنوانها الراحة وعقدتها الشعور بالذنب، والخاتمة فيها على من نبكي؟ ومضمونها سيظل عالقاً في الأحاسيس التي لا تعرف إلا الشعور بالحزن.

- لماذا رجعت ؟ كي تطاردي عزائي حتى في أن أكون سجيناً؟ حاولت أن أنعزل عن اسميكما،أن أتنكر من وجودكما لأكون غالباً، لا مغلوباً. أفرض قانوناً من قوانين الذات البشرية للمضطهدين في أن يختاروا أبيهم قبل أمهم، أو أمهم قبل أبيهم، حتى إذا ولدتهم البطون عاشوا من دون أن يدخلوا السجون!!.

حين وصف لي عمي أختي فريدة يوم زارهم، بدعوة من أبي تخيلته يصف غصناً بلا وريقات، صامتة ذلك الصمت الذي ورثته عن أمها، كعادتها تجلس على الحصير تخربش رسوماً لبياض الثلج وزوجة أبيها والأقزام السبعة الذين أصبحوا اثنين بدلاً من أربعة!.

قدمت لي أختي المرأة والشاب حين قالت وقد طفح وجهها بحمرة الخجل الوردي:

- خالة أم حسن، وحسن !

الرجل الذي احتواني في الداخل أراد أن يحتوي أختي في الخارج يصاهر والدي من دون أخذ مشورتي، يا للغبطة الرنانة !، وفراغ الروح يشدني إلى عبارة:

- ما رأيك بابني حسن، هل أعجبتك المفاجأة؟.

سبق أن ذكرت لكم أن الرجل كان من الرجال القادرين على دفع المال في إعادة الحسابات من جديد، لتجد نفسك مع طبيعة الخير البشرية تعيش بعض وقت تحسبه سيكون طويل الأمد!.

من أجل احتواء الحقيقة عرشت في ذاكرتي حكاية عمي مع والدي، تلك الحكاية التي ستسقط من حساب الأحاجي بكل تلاوينها الممتوحة من أساطير الأولين!.

من ضرب أخي رضوان عمي، ضرب المعلم تلميذه لأنه أهمل واجبه في كتابة الوظيفة، ولأن الضرب ممنوع فقد جاء ليطوي همته على العطاء زاجراً عمله التربوي، ألم تُعرك الكنية في دفتر التفقد أي اهتمامٍ لتسألْ أيها المعلم العم؟!!.

حين كتبتَ اسمه على دفتر التفقد، لم تنظرْ إلى إخراج القيد نظرت في قائمة الأسماء التي تركها المعلم السابق، ولأن المعلم اختصر من اسم الشهرة اسم عبد الوكيل وإل التعريف في كلمة الدليل، صار الاسم "ناجي دليل"، ولأن والدي كان قد التقى بك غير مرة عند صاحب المعمل الذي كان يشتري من عنده بعض الملابس الولادية فقد تواصلت بينكما صلة الرحم، ولكن من بعيد بعد أن تعرف أحدكما على

الآخـر!! على الحقيقـة القاسـية، الحقيقـة الغائبـة عن ضـمائر الذين عزلتهم ظروف فشل العلاقة الزوجية !

حين دخلت المدرسـة تريـد اتهـام المعلم بـالخروج على القـانون وجـدت أخـاك من أبيـك المعلم الـذي ضـرب ولـدك فعقدت الدهشة لسانك ولم تعقـد لسـان أبي الـذي كـان يحكم على أمي بالصمت الجريح حين كانت تطالبـه بزيـارة أهلـه من أبيه لنتعرف إليهم، ويتعرفوا إلينا قائلاً جملته المعروفة:

- مالكْ علاقة !.

بعد تقويض قدرات النملة الحزينـة على عـدم فتح ثقـوب الصـلح تقـف وأخيـك في ممـر المدرسـة، لتخـرج الحقيقـة من مخـاض التفريـق والمـدير بعينيـه الشاخصـتين المبهورتين لا يصدق ما يسمع!، دنيا الفوازير تنبش تابوت الماضي عن قصـة مائعة عليك أن تصدقها بعد كشف كلّ الحقائق!.

بعد غدٍ سأمثل أمام القاضي، سأرجو عطفه، أريد الخروج لأحدث النـاس كخطيبٍ في جـامعٍ، أريـد أن يعـرف النـاس أن اللاأخلاق ضعف خفي مسيطر ينبعث من الأنانيـة الحمقـاء نحـو الشهوة والمال.

وجدي الذي لا أعرفه لماذا لم يسأل عن عمي وجيه؟! تمثلته في خاطري لا يشبه أبي، ولكني اكتشفت من طباع البشر مـا لم يكتشفه أي شخص من الحكماء.

الليلة بالذات تمنيت أن أرى القمر يعزف سمفونية غزلية لا يسمعها غيري لأزف له بشرى خطوبـة أختي على واحـدٍ في مثل عمري واحد احتواه أهله ولم يطرده أبـوه، لأنـه لم يـتزوج على أمه.

بعـد مـرور ذلـك اليـوم الـذي ذقت فيـه طعم السـعادة، السعادة التي حدثني عنهـا الشـيخ عفريتـة أنهـا مجـرد لحظـة! والتي أحسست بمعناها عندما قرأت الفرح والسرور على وجه أختي تلـك الـتي غرسـت في نفسـي نحوهـا مشـاعر ودّ ووئـام جعلتني لا أنساها أبداً.

ولكن النفور لا يطوي الحقد، والحقد يتأزم مثل أخطبـوطٍ تمكنَ من فريسته، أمام ناظري أدغل بعمي مثـل داعـرٍ موغـلٍ في المشـاجرات الـتي تفـك إزار التلاحم الإنسـاني، ومن فمـه الكريـه خـرج سـباب بـذيء فـتراءى لي أني وبغمضـة عين قـد تحولت إلى ذئب أصابته رصاصة في حشاشة صدره، فأقفزعن مكـاني بلا وعيٍ، لأتمثـل صـورة ذئب يعـارك قـرداً نحيلاً ومـع صيحة العم أبي حسـن تـدخل الرجـال وصـاحوا صـيحة زأر لهـا "القاووش"!!

تركته والشرر يتطاير من عينيـه، أهي الغـيرة اللئيمـة من حظوتنا عند أبي حسـن؟ أم هي الطبيعـة الكارهـة لكـل علائـق الوجــدان في منغلــق مكــانٍ لا سـلطة للآخــر على آخــر إلا بالقوة!؟.

أعترف الآن أن مفاتيح الرذائل من هذه الفجوات المبهظة

لا تقوم إلا على القوة الهاصرة لكلّ أقنوم من أقـانيم الفضـيلة في اقتناء الحكمة، هذه الكلمة الـتي فسـرها لي المصـلح على أنها مَلكُ الحياة ومن غيرها لا قوة لك!.

أمام الوجوه المنخورة كان القاضي يتأنى!، يطالع الإضـبارة من دون أن يرف له رمش في عينيـه، في اللحظـات تلـك راحت تشدني دوامات عنيفة إلى قـاع الغـرق، واللزوجـة الرطبـة تعيـق حركة ذاكـرتي أكـاد أختنـق، أقـع، كـل المنعطفـات تـدور الفـأس الحـادة تهوي على رأسـي تعيـدني إلى أنـات السـجين! الجـدران المقضبة هي مكاني، لا حياة خارج هذا المكان قبل انقضـاء سـبع سنواتٍ !.

وأمي من فتات سفرها النائي تمدّ يد العون لولـدها الـذي شعرت حين سمعت بخبر زجه داخل السجن أنـه يـدفع ضـريبة قاسية من انقسام الخلية،التي أسفرت عن انحرافه وغرقه.

تريــد أن تطــوي الخريطــة، والخريطــة تواجــه غــول الاستباحات المهولة،وكي تنجو من شظايا المعيقـات في عتمـة الدخائل، ترسلُ عونها أتعرفين ما قاله المحامي:

- سنطعن بالحكم ونطلب الاستئناف.

أخـتي أخبرتـني حين زارتـني هـذه الزيـارة والـتي ظلت وحيـدة أن أمي طلبت من خـالتي أم جميـل أن توكـل محاميـاً للدفاع عني، من هناك اتصـلت بخـالتي وطالبتهـا بـالوقوف إلى جانبي، وابن خالتي جميل وسعياً من أبويه نحو تحقيق مستقبله دخل كليـة الطب، ونسـمة دخلت كليـة الحقـوق، وأخـتي وبعـد خروج أبي حسن ستدخل كليـة الـزواج، وأنـا بعـد انقضـاء مـدة الحكم سيكون اسمي "خريج سجون"، وأخواي رضوان ونــاجي يبيعان الجوارب ليلاً على أرصفة التلل وهما يتابعـان دراسـتهما في النهار، ونوال تزوجت! من قالت إنهـا تحبـني حـتى المـوت تـزوجت من ابن عمهـا، أرغمهـا أبوهـا على الـزواج، والشـمس غاربة عن حياتي فأحدق في الحيطان المتلونة، يجعلـني النظـر فيها أعيد ترتيب الزمن لكل الوقـائع، والأسـماء، والتـواريخ في اليوم والشهر والسنة.

المنكسرون، الظالمون، المظلومون، أحاول أن أقتلع من ذاكرتي ما أكره رائحته!، الفجوة الكسيحة والتي سفحت دمــاء غربتي وذنوبي الـتي وطنت عليهـا عربـدتي على نهايـةٍ، صـهيلُ دمعها ما انفك يغادر!.

سيخرج أبو حسن، الوسطاء تدخلوا، جعلوا الرجـل وأهلـه يتنازلون عن حقهم، أيام ويودعنا، سينسـى غالبـاً، سـيكون أبـو غالب البديل، يتجالسان، يتضاحكان، ألمْ يصبحا "نسايب" ؟!.

الليلة بالذات تركت أفكاري متأرجحة داخل عتمة المساءات الفارغة ونهضت فزعـاً، اقـتربت من سـريره، أنينه يفصـل القلب عن الوريد، عمي ما بك؟ سألته، ثم صرخت أريد الإسعاف، هـاتوا الإسعاف، الرجل حرارته مرتفعة إنه يختلج.

بتملقٍ أرعنٍ صاح الداعر:

- آ... "خيو بدنا ننام "!.

أسرعت نحو باب الزنزانة وبدأت أصرخ وأنا أضرب الباب بيدي :

- هاتوا الإسعاف، عمي مريض حرارته مرتفعة!.

بتململٍ نهض بعض الرجال، نهض أبو حسن واقترب وئيـد الخطوات من سريره لمس جبينه ثم قال:

- نزلة برد، " طول بالك الناس "بدها" تنام ".

نتأ عظم صدغي، فوجئت بالحرس يدخلون، آهٍ من بـرودة الأعصاب، آهٍ من كلّ هؤلاء ومنك، أنينك وقع في قلبي يـا عمي نقف وجهاً لوجه بكـل تفاصـيلنا أمـام لحظة انكسـار ومن دون وجود عاطفة، ما هذه القلوب ؟!.

حملوه على النقالة، حملـوه وتركـوني أحمـل في صـدري وذاكرتي مصرع مازن، موت الشيخ عفريتـة، المقـبرة،الزنزانـة التي تشبه المقبرة خشوعك وأنت ترى الكفن وهو يلفّ الجسد البارد!.

تحولات هائلة حدثت، الرجل الكريم تبدل وجهه، بلا ضـوء رأيت ملامحه جيـداً، حـاولت أن أقنـع نفسـي بـأن مـا أراه غـير الذي عرفت!.

رغبتُ في التقيؤ لأبصق من داخلي يد الأخطبوط الـرعن، رأيتُ وجهه غليظاً، ابتسامته تقطر خبثاً وضيعاً، شـعرتُ بحاجـة ماسـة إلى الضـحك، تمـنيتُ في اللحظـة تلـك أن أفتح صدره لأخرج كلّ ما يملأ كرشه المنتفخ.

جلست على سرير عمي مثل كومة قش رطبةٍ استشـرى في داخلها عفن الحقد وما من سبيلٍ غير الانتقام.

حين عاد الحـارس ظهـيرة اليـوم التـالي أخبرنـا أن عمي وجيه قد أسلم الروح.

وقعت الرصاصة في قلبي، عاودتني الرجفـة، هـل تسـلم الرجل الذي لطّع الشيب رأسه جثمان ولده!؟.

أدركت تفاهة الانسان في مغبة من ظلم الحياة، تلك التي تتواطؤ مع أقدارنا على سحق أفراحنا، أياً كـانت قيمتهـا ومهمـا تضاءل حجمها، الاثنان غادرا المكان، واحـد تـرك زمن الحقـائق وآخـر في نزيـف من عطاءاتـه راح في تـرف بـرقص، فالفتـاة مهرها رخيص، ولن ترفض الحياة مع عمٍ وحماةٍ وأولادٍ مازالوا قاصرين!.

والذي ترك زمن الوقائع برمتها، لّفوا جسـده بقمـاشٍ من كتان أبيضَ - درجة ثالثـة- وهـل يهم الميت نـوع الـدرجات وفي انتظاره دود الأرض!؟.

لم يأبه أحدٌ من السجناء لحالي، فتحوا التلفزيون الذي تركه أبـو حسـن عربـون محبـة في وفـاء، وفي محاولـةٍ لتخبئـة حالـة الانزعـاج الـتي رافقت قتامـة نفسـي وصـمتها اندسسـت تحت اللحاف الذي تركه لي الشخص ذاته!، وأنا ألوك أوجـاع الزمهريـر

الذي توغل في داخلي بشكل ما عدت قادراً على الخلاص منه.

تسلقت عرائش حقدي ومقتي وظلم الحياة لعمري صهوة من فرح خفي بدا خفيفاً وخفياً، "هنودة" أبي لم تستقبلها، قال تخاف من رؤية الميت، وتخشى أن تمـوت عنـدها، من أشـرف على رعاية أيامها الأخيرة الجيران،كـأن السـماء تسـتوفي منهـا بعض ديونها حتى عطف ملك الموت على أخاديدها الجوفاء وما خرج في جنازتها سوى والدي وأخواي وجارتنا أم نوري وبضـعة رجال من أصحاب الدكاكين في الحارة!.

-13 -

استفزازُ الآخـر امتهـانٌ سـيئٌ، لـذلك بـدوت متعبـاً من عويل الروح ومما تبقى من نبض القلب المجروح،عـدتُ وحيـداً نظراتهم تأكل انهياراتي القاسية،والذي كنت أخشـاه أن تتحـول هذه النظرات إلى خنـاجر تكتسـح مـا بقي من نبض القلب في خـبره، عمي لا تحـزن، سأجعلك في تربتـك تنـام هـانئ البـال، سأردُّ لك على ذلك الأرعن الوسخ، شعرتُ بذعرك من اقتحامه خلوتك وأنت داخل الحمام، وقف الرجـال معـه شـممتُ رائحـة الخطر بغريزة حيوانية، صدقني لن أنام قرير العين حتى أسرق النوم من عيونهم، أنا لست جباناً كما يعتقدون هنـاك فـرق بين الغدر، والانتقام!.

كنت مقلوباً رأساً على عقب، الضباب الدخاني يتنـاثر في أرجـاء "القـاووش" فخطـرت في ذهـني فكـرة، الرجـل الـذي تعودنا على مجالسته غاب عن المكان والزمان، لم أصدق أنهم اسـتجابوا، أنـا الآن سـيد الموقـف، بهـذه الطريقـة كسـرت شوكتهم يا غالب كن رجلاً بين هـؤلاء الرجـال، كـانت أصـابعهم كبيرة مخيفة، وكنت في قمـة نشـوتي! بنت الكبـة معي دائمـاً، إذن أنـا الـرابح دائمـاً، في اللعب أربح، وفي الحيـاة أخسـر، خسرت نوال، خسرت من عـرفت قيمـة حبهـا الآن، غـير مـرة ضربها أبوهـا بسـبب رفضـها الـزواج من إبن عمهـا، المسـكينة كانت تنتظرني، تنتظر أن أعود إليها حاملاً المهر والجهاز، لكني لم أفعل فاذعنت لرغبة أبيها وعينيها تبحثان عني!.

حين أطلقوا سراحي للنوم، نمتُ بعمقٍ أكثر من كلّ مرةٍ، النـوم على سـرير عمي أعجبـني، رائحتـه مـازالت تسـتوطن "المخدة" والفراش لن تصـدقوا إذا قلت لكم أنه كـان سـعيداً، رأيت قسماته، قسمات رائعة يظللها نور بهي، لست أدري هـل رأيته حقيقة؟ أم أني كنت حتى في منامي أتخيله؟.

حين استيقظت نزلت عن السرير، شـعرت بنفسـي رجلاً غادرتـه سـنون الشـباب، بعضـهم كـان في المطعم، وبعضـهم الآخر كان في زيارة خاصةٍ، وبعضهم شـمر عن سـاعديه، وبـدأ عملية غسيل حاجاته والمهندس يوسـف والـذي اتهمـوه بتهمـة وجود علاقة جنسية داخل مكتبـه مـع السـكرتيرة، كـان سـجين ذاته المنكسرة، خربـوا بيتـه وأرسـلوه مـع جوقـة من الزغاريـد

يطوقها طابور من عسكر أمن الدولة.

نهض من مكانه، نهض من وراء صمته المنكسر، وقبل أن يُنهي جملته الأخيرة، اكتب عني يا غالب! عاودني الضحك بلا ابتذال، يا رجل اسكتْ، إنه ابتكار جديد لأحد أشكال الفرعنة، يريدونك مشلولاً يستبدلون أمام عينيك الطيب بالكريه، والجيد بالرديء، وعليك أن توقع حاذر أن تقول لا! أو ما هذا؟ فتلك خيانة!!.

مشى أمامي وبقيت جالساً،لم يلتفت خلفه، ظلاله المكسورة هي التي أزعجتني،أغمضت عينيّ، بكى قلبي، بكى على مستقبلي الضائع على أنقاض العمر الذي بدأ يغطي فتات بياض القادم الآتي!.

الجو باردٌ، برودته تنعش ذاكرتي، غداً يمضي على وفاة عمي ستين يوماً، والرجل الذي صاهر أبي نسيني، اختلق لنسياني حجة انشغاله بترتيب أمور الجهاز والعرس، أدور في المكان نفسه، أرسم صورة المرأة التي ترجلت عن ظهر فرسها، الفارس الذي طاش بين أثداء المعجبات، أغربل من هنا، وأغربل من هناك لأجد أن غربلتي للأشياء لم تنته بعد، تلسعني ذكرياتها المريرة بجلدات لا تطاق! تمس أحاسيسي في أدق تفاصيل عقلي.

القنفذ الرديء يناديني:

- "هه " كاتب "أفندي "... ردْ "خيو"!.

لا أردّ عليه، أبقى في عزلتي على سرير عمي،لا أريد الصدام معه وفي غياب الرجال،أريدهم شهوداً، لا مشاهدين لكنه اقترب مني فنزلت من السرير وصرخت في وجهه :

- الله يلعنك قملة "معفوسة وبدك عفس "!.

سبقني إلى ياقة القميص، شدني من طرفه، فضحكتُ، ضحكتُ وبصوتٍ عالٍ، ارتجفت يده، احترقت قوته مثل قشةٍ بين نارٍ مفاجئةٍ!.

الأشياء الصدئة بدأت تزاول سقوطها في نفسي، أريد بديلاً عن الذئب الذي راح يعوي في أذني، أبو عيسى وأبو رائد وأبو حسام بدؤوا يصرخون ضجرين:

- لا نريد مشاكل أخرى، ياغالب أفندي، يكفينا ما رأينا، اترك الغرور.

الآن تظهر خفاياكم الباطنة، الآن تقفون مع المعتدي ضد المعتدى عليه، هكذا إذن تقفون جميعكم ضدي !،تريدون ألا أتنفس، أن أغيب في لجةٍ من عويلٍ يجعلني قزماً تافهاً!.

الوجوه صارت كلها خفافيش مذنبة يئز صوتها في تلافيف عقلي المنهار، والفعل المنتقم يزحف بهدوءٍ إلى داخلي!

الآن تفسخت نقمة الطريد المطرود عن شر بات أمراً مقضياً أريدهم مذعورين لا يعرفون كيف يطفئون نيران انتقامي، إني أشيعه بآخر النظرات المنتشية، وأنا أراه مثل

فزاعة يسقط عن سريره، وقد انفقأت عيناه!.

" الطبجي" يجب أن يموت، عينا "الطبجي" يجب أن تقلعا سأطحن عضوه تحت رحى انتقامي، سأضع في دبره "خازوقا" من حديدٍ ساخن، سأحقق بعضاً من عدالـةٍ لا يعرفهـا القاضـي، بـل كـلّ الـذين يتفوهـون عن حقـوق الطفـل، صـديقي القمـر سيمسح دموعي، وسينشر أوراق حكـايتي من يوم ميلادي حـتى آخر رمق في حياتي!!.

سيضمني مع كواكبه والنجـوم السـاجيات، سـأرحل عنهم إليه نظيفاً.

في مغارة الشيخ عفريتة كـان علي يمـارس اللواطـة مـع بعض من الرجـال الـذين مسـخ اللـه في وجـوههم البشاشة، وحين أخبرت الشيخ محمد قال:

- لا علاقة لنا بخصوصيات الآخرين.

الآخر كـان يشـتري بصـمته على المنكـر البشـع البغيض وجودهم للمعونة في أخذ ثأره.

هيمنـة القـوى الشـريرة دونيـة رخيصـة، مليئـة بالقـذارة الموحلة التي تعدم الحياء في نفس بـني آدم، لتفجرهـا فـاجرة كعاهرة لا تستحي من خلع ملابسـها أمـام جمهـور من الرجـالِ وأنت يا حشري ألن تبتعد عني؟ عدْ إلى أحبارك وإبـرك، اوشـم أكتـاف الرجـال والشـباب، ارسـمْ بالوشـم، القلب والنعامـة والصقر ورأس التنين زينها بأحبارك ورماد سـكائرك، ألا يكفيـك جرمـك؟!الاعتـداء على بنت الجـيران! مـا تقبضـه من هـؤلاء سيجعلك تفكر بالعودة سريعاً، صدقني لا حاجة لـك بي، دعـني وشأني فأدعك وشأنك !.

كانت فكرتي جهنميـة، وكـانت رغبـتي في الانتقـام تـزداد يوماً إثر يومٍ، رائحة النـار، رائحـة النهـر، الأجسـام المتخشـبة، رائحـة الجسـد، العيـون المفقـوءة، الضـباب الـدخاني وتفحم الأرعن سبيلي!.

بـدأت أجمـع المزيـد من الأوراق والأكيـاس الـتي كـان السجناء يرمونها، تـرددت كثيراً في تمزيق الروايـة الـتي تركهـا عمي تحت "مخدته"! لكن حاجتي إليها جعلتـني أمـزق أوراقهـا لأضـمها إلى مـا ادخرتـه من أشـياء تحـترق، وبشـهية على الاحتراق!.

عود الثقاب يشتعل، الضحك يتدحرج على دحرجة فزعهم من هول المفاجأة، صفارات الإنذار تعلو، النيران تلتقطه تحاول ابتلاعه ضحكي يتمـاوج، يتخـافت، مـا عـدت قـادراً على تمـييز الوجوه الأصوات تتخبـط، كـلّ يسـعى نحـو خلاص نفسـه، بـاب "القـاووش" موصـدٌ، رائحـة الانتقـام تنمّ عن حقـدٍ تجـذرت انكساراته.

رجلاه مربوطتان، صراخه يدوي، عيناه تفحمتـا شـعره ذاب مع دهن رأسه!.

كلّ الأشياء انطفأت، كلّ الألوان زالت، هـذا الحقـد جعلـني

أسقط وهذا السقوط جعلني زاهداً، أتطلع نحو الموت بتوسلٍ، فالأقانيم التي هجرت، والأقانيم التي كرهت، كلها صـارت مثلي في فم النيران.

روحي تنازع الحيـاة، تضـغط على خلايـاي العتيقـة يـذكره عقلي أراه في المسافات البعيدة المنقبضة على آخـر مـا تبقى لنـا من تـراحم إنسـاني أغلقـه برتـاج الأنانيـة والعقـد الـتي في داخله من شح الجيب وسواد القلب وشهوة الجسـد والـذي مـا زال مؤطراً بكلمة :

- أنـا متـبرئ منـك، اخـرج من هنـا "اتفـووو"، أنت ولـد مغضوب.

في القبور كلّ الجماجم تتشـابه، كـلّ الأكفـان بيضـاء كـلّ الأجســـاد فانيـــة، أمي تعالي كي تخيطي الكفن، أبي اطلب رصاصة الرحمة، "الطبجي" مات، ذاكرة الروح مازالت تنتفض، عمي، القمـر أخـتي، هبـني يـا ملـك المـوت وسـادة للمـوت الرحيم... أيتها... ال... أ... و... را... ق... لا... ت ح... ترقي!!.

la fin le 19/08/2011 16 :08 ☺ oumi

1999 / 5 / 6

2004 / 2 / 6

***

بطاقة تعريف :

سها محمد جلال جودت

من مواليد حلب 1954

العمل مديرة ابتدائية، تحمل شهادة أهلية التعليم

عضو نادي التمثيل العربي للآداب والفنون

عضو جمعية العاديات

عضو النادي الثقافي النسائي

عضو مكتب الثقافة الفرعي / نقابة المعلمين

عضو في الاتحاد النسائي

تكتب القصة والقصة القصيرة جداً والرواية، حازت على الجائزة الأولى لفرع اتحاد الكتاب العرب مناصفة والجائزة الثانية لفرع نقابة المعلمين عام 1998 مناصفة، كما حازت على الجائزة الثانية في أدب الأطفال عام 2003مناصفة.كما نوهت مسابقة البتاني بقصة نجمة في السماء عام 1998.

تنشر في الدوريات العربية والمحلية

أصدرت أول مجموعة قصصية عام/2001/ـ بعنوان (رجل في المزاد)، دار الثريا/ بحلب .

***

صدر للمؤلفة :

مجموعـة قصصـية : رجـلٌ في المـزاد – عام2001
داراالثريا
مخطوطات قيد الطبع:
مقالات - تراتيل سمفونية الوطن
رواية - ذاكرة القلب ذاكرة الروح
كتاب - الأدباء يكتبون طفولتهم
قصص - بائعة العصافير
قصص - دماء الفرس
قصص قصيرة جداً – أنا

❒❒